الباب الرابع

الآثار الناجمة عن ترك الصحيح من أحاديث الآحاد

وفيه تمهيد وخمسة فصول :

تمهيد :

الفصل الأول : عدم تعظيم السنة وتجريدها من دلالتها .

الفصل الثاني : رد بعض المسائل العقدية الثابتة في خبر الآحاد .

الفصل الثالث : تعطيل بعض الأحكام الشرعية .

الفصل الرابع : العدول عن تفسير القرآن بالحديث إلى تفسيره بالرأي .

الفصل الخامس: ضعف الدوافع والبواعث على الأعمال الصالحة نتيجة لضعف اليقين بثوابها الثابت بخبر الآحاد .

تمهيد

اشتمل كتاب الله العزيز سنة نبيه ﷺ دالاً على وجوب العمل بها ، وأن السنة مبينة مفصلة له ؛ ذلك أن القران الكريم جاء بتحقيق السعادة للناس في حياتهم الدنيا والأخرى وجماع السعادة في ثلاثة أشياء :

أ ــ الضروريات: وهي حفظ الدين والنفس والمال والعقل والعرض.

ب ــ الحاجيات: وهي كل ما يؤدي للتوسعة ورفع الضيق والحرج كإباحة الفطر في السفر أو المرض .

جـ ــ التحسينيات : وهي ما يتعلق بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات ، وهذه الأمور الثلاثة ومكملاتها قد جاء بها القران الكريم أصولاً يندرج تحتها كل ما في القرآن الكريم من أحكام وقد جاءت بها السنة تفريعاً عن الكتاب وتفصيلاً لما ورد فيه . فجميع نصوص السنة ترجع إلى هذه الأصول الثلاثة(١).

ومصادر التشريع الإسلامي معروفة لدى المسلمين موثوقة محفوظة، ولا يشك أحدٌ أن السنة المطهرة وهي ثانية هذه المصادر ، أوسعها فروعاً وأحفلها نظماً وأرحبها صدراً ، إذ كان كتاب الله الكريم متضمناً للقواعد العامة في التشريع والأحكام الكلية في الغالب مما جعله خالداً خلود الحق ، بيد أن السنة الكريمة عنيت بشرح هذه القواعد ، وتثبيت تلك النظم ، وتفريع الجزئيات على الكليات ، مما يعرفه كل من درس السنة دراسة وافية ،ومن ثم لم يكن لعلماء الإسلام مندوحة من الاعتماد على السنة، واللجوء إليها والعناية بها والاسترشاد بأحكامها المنصوصة على أحكام الحوادث الطارئة(٢) . والأخذ بالسنة الثابتة الصحيحة في كل مجالات الحياة يحقق الاستجابة لله وللرسول لقوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ (٣) وإذا كان الأخذ بها ضرورة دينية ، فالتدين بها في كل ما وردت فيه تدين بالقرآن ، والتدين بهما من ضروريات الحياة الإيمانية، وتتأكد ضرورة الاستمساك بهما والانقياد لها في كل عصر ، وعلى كل

---

(١) الموافقات للشاطبي ، انظر ، ج٢ ، ص ٢٧ – ٣٢ .

(٢) السنة والتشريع د . مصطفى السباعي ، انظر المقدمة .

(٣) سورة الأنفال ٢٤ .

حال ، والدفاع عنها وحمايتها ممن لا يعرفون قدرها ومكانتها في الإسلام [١] .

((فإذا كان أعقل الخلق على الإطلاق إنما حصل على الهدى بالوحي ، فكيف يحصل لسفهاء العقول والأحلام الاهتداء إلى حقائق الإيمان بمجرد عقولهم دون نصوص الوحي .. فلو كان كلام الله ورسوله لا يفيد اليقين والعلم، والعقل معارض له فأي حجة تكون قد قامت على المكلفين بالكتاب والرسل ؟ وهل هذا إلا مناقض لإقامة حجة الله بكتابه من كل وجه!)) [٢] .

قال شيخ الإسلام : ((قد تدبرت عامة ما يذكر المتفلسفة والمتكلمة، والدلائل العقلية ، فوجدت دلائل الكتاب والسنة تأتى بخلاصته الصافية عن الكدر ، وتأتى بأشياء لم يهتدوا لها ، وتحذف ما وقع منهم من الشبهات والأباطيل مع كثرتها واضطرابها)) [٣] .

و((لما أظلمت القلوب وعميت البصائر بالإعراض عما جاء به الرسول ﷺ، وازدادت الظلمة باكتفائها بآراء الرجال ، والتبس عليها الحق بالباطل ، تجوزت أحاديثه الصحيحة التي رواها أعدل الأمة وأصدقها أن تكون كذباً وجوزت على الأحاديث الباطلة المكذوبة المختلقة التي توافق أهوائها أن تكون صدقاً فاحتجت بها))[٤] وهم الشيعة والصوفية وأضرابهم .

((وقد تدبرت مقالة أهل الكلام فوجدتهم يقولون على الله ما لا يعلمون، ويفتون الناس بما يأتون ويتهمون غيرهم في النقل ولا يتهمون آراءهم في التأويل ومعاني الكتاب والحديث .

ولو ردوا المشكل منهما إلى أهل العلم بهما ، وضح لهم المنهج ، واتسع لهم المخرج ، ولكن يمنع ذلك طلب الرياسة ، وحب الاجتماع ..)) [٥]

((وقد ابتليت السنة بعامة وآحادها بخاصة منذ القدم بمن أنكروها أو عارضوها بآرائهم وأهوائهم ، منهم من قصد ردها أصلاً بالطعن في رواتها ، ومنهم

---

(١) خبر الواحد في التشريع الإسلامي ،للقاضي برهون ، ج ١ ، ص ٨ ، ٩ .
(٢) مختصر الصواعق المرسلة لابن القيم ص ٧٦ .
(٣) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج٩ ، ص ٢٣٢ .
(٤) مختصر الصواعق المرسلة ، الطبعة الأولى ١٤٠٥ هـ ، ص ٤٧٩ .
(٥) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، ص ١٣ ، ١٤ .

من أنكر حجيتها في العقائد فضيق مجال العمل بها ومنهم من عارضها بشروط مستحدثه جعلت عوائق تمنع الأخذ بها .

فأخبار الآحاد إذا صحت بالسند الصحيح المبلغ إليه ﷺ فإنها حجة بنفسها، تفيد العلم والعمل، كما هو مذهب المحدثين والمنصفين ..

وقد انعقد إجماع الصحابة والتابعين بعدهم على الاحتجاج بها في أمور الدين كلها قبل استحداث ما اشترط من شروط ، والرد على المنكرين والمستهزئين ، ومبعّضي الاحتجاج بها في بعض أمور الدين دون بعضها الآخر، بل إن هذا ضرورة دينية في كل عصر[1] . ولهذا يتبين خطورة إهمال الصحيح من أحاديث الآحاد وعدم الأخذ بها والاحتجاج بها في مسائل العقيدة لما يترتب على ذلك من آثار تظهر مفصلة في الفصول الآتية:

---

(١) خبر الواحد في التشريع الإسلامي للقاضي برهون ، ج١ ، ص ٩ .

الفصل الأول

عدم تعظيم السنة وتجريدها من دلالتها

إن كتاب الله هو الأصل الأول من أصول التشريع الإسلامي ،وهو الوحي المتلو المنزل على محمد بن عبد الله عليه الصلاة السلام ، المتعبد بتلاوته ، المعجز بألفاظه ومعانيه ، أنزله الله لهداية الخلق ، فهو هدى للمتقين ، ودستور المسلمين ، وحجة قائمة إلى يوم الدين ، على الناس أجمعين .

أما السنة النبوية المشرفة فهي وحي مثله ، بذلك نطق الكتاب العزيز ، وهي أصل ثان من أصول التشريع الإسلامي ، فالكتاب مقدم وهي تالية له ، وهما معاً وحي من الله ، فهو وحي متلو وهي –أي السنة – وحي غير متلو .

فهي معه في مرتبة واحدة من حيث الاعتبار والاحتجاج بهما على الأحكام الشرعية ، غير أن السنة وإن كانت في مرتبته من حيث مصدرية الوحي والاعتبار والاحتجاج ، فهي تفارقه في أمور: أهمها أنها منزلة بالمعنى ، ولفظها من النبي ﷺ ويجوز روايتها بالمعنى للعالم بمعانيها وألفاظها ، الخبير بمقاصدها عند من يرى ذلك من العلماء ، وأنها ليست بمعجزة بألفاظها ، ولا متعبد بتلاوتها (١).

وقد ظهر وتبين أن معظم الأحاديث الدالة على مسائل العقيدة هي أحاديث آحاد صحيحة . وأن الطعن فيها وتركها هو الجهل المتعمد والإعراض عن مقاصدها .فكيف تتضح معالم هذه العقيدة إن هي أُعرض عن مصادرها الأصلية فالعقيدة الصحيحة هي التي جاء بها القرآن ، ونطق بها سيد المرسلين ، وأخذ بها الصحابة الكرام ، وتلقاها عنهم التابعون ، وأتباعهم حتى وصلت إلينا صافية نقية وكأنها نزلت اليوم ، وهي عقيدة سلف الأمة .

وخلاصتها : الإيمان بما جاء عن الله عز وجل في الكتاب العظيم من صفات الله تعالى ، ثم الإيمان بما جاء في سنة رسول الله ﷺ الصحيحة التي تلقاها علماء الأمة وجماهيرها بالقبول مثل : نزول الرب عزّ وجل ، وفرحه بتوبة العبد ، وضحك الله عز وجل إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر ، ووضعه رجله في جهنم فتقول قط قط ، وحديث الجارية، وغيرها من الأحاديث التي يخبر فيها رسول الله ﷺ عن ربه ، وكذلك يؤمن أهل السنة والجماعة بأحاديث أشراط الساعة الكبرى والصغرى ، وأحاديث منكر ونكير وأحاديث عذاب القبر ونعيمه ، وأحاديث

---

(١) انظر الحديث والمحدثون ، د . محمد محمد زهو ، مطبعة مصر ، ص ١٥ .

الشفاعة، و أحاديث نعيم الجنة وعذاب النار ، وأحاديث إثبات القضاء والقدر ، وغيرها من شعب الإيمان التي جاء ذكرها في الأحاديث الصحاح . ومن المعلوم أن معظم هذه الأخبار من أحاديث الصفات والغيبيات لم تثبت إلا بأخبار الآحاد وإن السلف لم يتردد في قبولها .

وعندما ردت هذه الأحاديث الصحيحة بحجة أنها آحاد وأنها ظنية ؛ فرغت السنة من محتواها الذي أراده الله ورسوله ﷺ ، وتنكب أصحاب هذا الرأي الهوى ومبتدع الكلام ، فكان انحرافهم عن هذه العقيدة نتيجة بعدهم عن مصادرها الأصلية من الكتاب والسنة ، وتنكبهم عن طريقة السلف الصالح في فهم أصول الدين .

فكثرت الفرق ، وتباينت عقائدها مثل الخوارج الذين أعلنوا تكفير كل مرتكب للكبيرة ، وكفروا علياً رضي الله عنه وأصحابه رضوان الله عليهم ، والشيعة الذين كفروا معظم أصحاب رسول الله ﷺ ثمّ أعرضوا عن حديثه الذي نقله أصحابه رضوان الله عليهم .

فكانت محنة على الإسلام وأهله ، والجهمية من أتباع جهم بن صفوان الذين نفوا جميع صفات الله تعالى وأسمائه ، وجعلوه الوجود المطلق فأعرضوا عن شرع الله ، والمرجئة الذين ادعوا أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما لا ينفع مع الكفر طاعة ، وأن العمل ليس من الإيمان ، ومنهم السالمية الذين قالوا : إن الإيمان هو المعرفة ! والقدرية ؛ الذين نفوا القدر وهم مجوس هذه الأمة .

والجبرية ، الذين غلوا في إثبات القدر وقالوا : إن العبد مجبور محض .

والمعتزلة ، الذين ألّهوا العقل وجعلوه حاكماً على النقل ، وأثار أفكارهم لا تزال باقية إلى اليوم في الأمة ، ومنهج تفكيرهم جارٍ في كثير من الكتّاب المعاصرين . فنفوا صفات الله وأصّلوا لأنفسهم أصولاً خمسة عدّوها أركاناً للدين!. والأشاعرة الذين أثبتوا لله سبع صفات ونفوا عنه البعض الآخر وردّوا أحاديث الآحاد بحجة الظن فيها فأولوا الصفات اللائقة بجلال الله سبحانه .

وكل هؤلاء ابتعدوا عن الحق بقدر بعدهم عن السنة الصحيحة التي كان عليها

النبي ﷺ وخيار هذه الأمة من الصحابة والتابعين[1] وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين.

إن أولئك لم يبتعدوا عن الحق وكفى ؛ بل إنهم أصّلوا لأنفسهم أصولاً وسنوا لهم طرق ومناهج شتى وهذا نتيجة تجريد السنة من دلالتها الواضحة وحجتها القائمة، وهذا خروج عن الصراط المستقيم ، ورميٌ في عماية ، وبيان ذلك من وجوه :

أحدها : إن العقول غير مستقلة بإدراك مصالحها ، استجلاباً لها ، أو مفاسدها استدفاعاً لها ، لأنها إما دنيوية أو أخروية ...

فلولا أن منّ الله على الخلق ببعثة الأنبياء ، لم تستقم لهم حياة ، ولا جرت أحوالهم على كمال مصالحهم ، وهذا معلوم بالنظر في أحوال الأولين والآخرين .

وأما المصالح الأخروية فأبعد عن مجاري العقول من جهة وضع أسبابها وهي العبادات فإن العقل لا يشعر بها على الجملة ، فضلاً عن العلم بها مع التفصيل.

ومن جهة تصور الدار الآخرة وكونها آتية ، فلا بدّ أنها دار جزاء على الأعمال ، ولا يغترنّ ذو الحجى بأحوال الفلاسفة المدعين إدراك الأحوال الأخروية بمجرد العقل قبل النظر في الشرع .

والثاني : إن الشريعة جاءت كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان .

والثالث : إن المبتدع معاند للشرع ومشاق له ، لأن الشارع قد عين لمطالب العبد طرقاً، وقصر الخلق عليها بالأمر والنهي والوعد والوعيد ، وأخبر أن الخير فيها ، وأن الشر في تعدّيها .

والرابع : إن المبتدع قد نزّل نفسه منزلة المضاهي للشارع ! .

والخامس : إنه متبع للهوى ، لأن العقل إذا لم يكن متبعاً للشرع ، لم يبق له إلا الهوى والشبهة ، وهذا الضلال المبين .

وقد جاء النقل بذم الابتداع في الدين والخروج عن منهج آخر المرسلين ﷺ من وجوه:

أحدها : ما جاء في القرآن الكريم مما يدل على ذم من ابتدع في دين الله

---

(١) التمسك بالسنة في العقائد والأحكام ، محمد الأعظمي ، انظر ص ٦٢ ، ٧٠ .

جملة فمن ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ [1] ويبين مقاصد الشارع ما ورد في السنة فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، قال : ((خط لنا رسول الله ﷺ خطاً طويلاً ، وخطاً عن يمينه وعن يساره ، فقال : هذا سبيل الله ، ثمّ خط خطوطاً عن يمينه ويساره ، وقال: هذه سبل وعلى كلّ سبيل منها شيطان يدعو إليه ثمّ تلا هذه الآية ..)) [2].

الثاني : ما جاء في الأحاديث المنقولة عن رسول الله ﷺ ، وهي كثيرة تكاد تفوق الحصر ..

الثالث : ما جاء عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم في ذمّ البدع وأهلها [3]. وكل خارج عن السنة ممّن يدعي الدخول فيها والكون من أهلها لابدّ له من تكلف في الاستدلال بأدلتها على خصومات مسائلهم ، وإلا كذّب اطّراحها دعواهم ..

وإذا تقرر هذا ، فلا بد من التنبيه على تلك المآخذ ، لكي تُحذر وتتقى قال تعالى : ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾ [4] وذلك أن هذه الآية شملت قسمين هما أصل المشي على طريق الصواب أو على طريق الخطأ :

أحدهما : الراسخون في العلم ، وهم الثابتوا الأقدام على الشريعة .. ومقتضى الآية المدح فهم إذاً أهل للهداية والإستنباط .. فإن تأولوه ، فبالرد إلى المحكم الذي هو أم الكتاب ، وإن لم يتأولوه فيقابلونه بالتسليم ، وهؤلاء هم أولو الألباب .

والقسم الثاني : من ليس براسخ في العلم ، وهو الزائغ فحصل له من الآية صفتان :

الأولى : بالنص وهو الزيغ وهو الميل عن الصراط المستقيم ، وهو ذم لهم.

الثانية : بالمعنى ، وهو عدم الرسوخ في العلم ، وكلّ منفيٍّ عنه الرسوخ فإلى

---

(١) سورة الأنعام ١٥٣ .

(٢) المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ، ج٢ ، ص ٢٦١ ، ٣٤٩ .

(٣) الاعتصام للشاطبي ، انظر ، ج١ ، ص ٦١ – ١٠٥ .

(٤) سورة آل عمران ٧ .

الجهل ، ثم إتباعه للمتشابه لو كان لجهة الاسترشاد به لم يحصل به مقصود على الحال ، فما ظنُّك به إذا اتبع ابتغاء الفتنة .

وقد أفادت الآية أن طريق الحق واحدة ، وأن للباطل طرقاً متعددة ، وتعددها لم ينحصر بعدد مخصوص ، بل ولا زمن مخصوص ، فإن وجوه المخالفات لا تنحصر أيضاً فمنها :

اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة والمكذوب فيها على رسول الله ﷺ والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها .

ويمكن تصنيف أصحاب هذا الاتجاه ، وهم الشيعة الذين يعتمدون أحاديث مكذوبة ويسندونها ظلماً إلى ائمتهم الأثني عشر ، وهي متصادمة مع الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ كيف وقد كفروا أصحاب رسول الله ﷺ الناقلين سنته إلى الأمة إلا بضعة منهم .

وكذلك من يعرف بالصوفية أصحاب الجهل بالنقل ، مقدسيّ الرسوم والأشخاص وأصحاب الكشف والتجلي والذوق والوجد وأعياد المولد وسهرات الإسراء والمعراج .

ومنها : ردهم للأحاديث التي جرت غير موافقة لأغراضهم و مذاهبهم ، ويدعون أنها مخالفة للمعقول ، وغير جارية على مقتضى الدليل المزعوم عندهم ، فيجب ردها : كالمنكرين لعذاب القبر ، والصراط ، والميزان ، ورؤية الله عز وجلّ في الآخرة ، وكذلك أحاديث رسول الله ﷺ التي يخبر بها أمته وحياً من الله ولا يعلمها بشرٌ غيره ولا مجال فيها للاجتهاد والرأي كحديث الذباب المشهور وغيره ، وما أشبه ذلك من الأحاديث الصحيحة المنقولة نقل العدول ، وربما قدحوا في الرواة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم ، ومن اتفق الأئمة من المحدثين على عدالتهم وإمامتهم ، كلّ ذلك ليردوا به على من خالفهم في المذهب .

وربما ردّوا فتاويهم وقبحوها في أسماع العامة ، لينفّروا الأمة من إتباع السنة وأهلها.

ويُصنّف هنا أصحاب علم الكلام المذموم كالمعتزلة و الجهمية والكلابية والماتريدية والأشاعرة والسالمية والمرجئة ، وهؤلاء منهم من ردّ الأحاديث وطعنوا

في صحتها وأنها أخبار آحاد لا تقبل في العقيدة ، ومنهم من قال إنها ظنية فلا يقبل في العقيدة إلا اليقين كالأشاعرة والماتريدية والكلابية ، ثم قاموا بتأويل مدلولات النص الصحيح .

أما الطاعنون في صحة الحديث كالمعتزلة والجهمية والمرجئة فلا يقبلون إلا المتواتر ، وإذا تعارض مع اليقينيات العقلية عندهم فلا يعتد به وإن كان متواتراً .

وأما الخوارج ، فإنهم قد طعنوا في الصحابة فلا يعتدون بالحديث معتقدين الأخذ بالقرآن مع فهم خاطىء مرتجل متهور ، وانصراف تام عن السنة .

ومنها : تخرصهم بالكلام في القرآن والسنة العربيين مع الإعراض عن علم العربية الذي يفهم به عن رسول الله ﷺ .

بل وإلى تفسير القرآن بالرأي والعقل بعيداً عن السنة الصحيحة وعدم تقييد ذلك بالنحو والصرف في القرآن ، فكان أصحاب التفسير بالرأي وأصحاب التفسير العلمي للقرآن[1] هو ما آل إليه حال من اعتمد الرأي في تفسير القرآن وعلومه .

قال الإمام الشاطبي رحمه الله : ((إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ، ولم يبلغنا أنه تكلم احد منهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلي ذلك ، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، وذلك دليل على أن القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا..))[2] .

أما الإعجاز العلمي للقرآن فلا يعد من التفسير وإنما قصد به الدعاة إظهار عظمة الإسلام ومجادلة أهل الكتاب والإلحاد ودعوتهم إلى الإسلام .

ومنها : قوم استندوا في أخذ الأعمال من المنامات ، وأقبلوا وأعرضوا بسببها، وهم أضعف تلك الفرق والطوائف احتجاجا ، ويتفق مثل هذا كثيراً ، المترسمين برسم التصوف .

ومنها : بناء طائفة منهم الظواهر الشرعية على تأويلات -لا تعقل يدّعون

---

(١) وكما قال العلماء في تفسير مفاتيح الغيب للرازي : فيه كل شيء إلا التفسير ؛ فكذلك التفسير العلمي مثل الجواهر في تفسير القرآن لطنطاوي جوهري ، قال عنه الذهبي ((فيه كل شيء إلا التفسير)) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ج٢ ، ص ٥١٧ ؛ وسيأتي الكلام عن التفسير بالرأي المذموم ص ٨٦٠ وما بعدها زفيه يظهر مخالفة مسائل العقيدة الصحيحة.

(٢) الموافقات للشاطي ، ج٢ ، ص ٧٩ – ٨٠ .

فيها أنها المقصود والمراد ، لا ما يفهمه العربي منها – مسندة عندهم إلى أصل لا يعقل، وذلك أنهم قوم أرادوا إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، وإلقاء ذلك بين الناس لينحل الدين ، فلم يمكنهم ذلك صراحاً ، فقالوا : كل ما ورد في الشرع من الظواهر في التكاليف والحشر والنشر والأمور الإلهية ، فهي أمثلة ورموز إلى بواطن .

ولهم في هذا الإفك كثير من الأمور الإلهية وأمور التكليف وأمور الآخرة ، وكله حوم على إبطال الشريعة جملة وتفصيلاً ، إذ هم ثنوية ودهرية وإباحية ، منكرون للنبوة والشرائع والحشر والنشر والجنة والنار ، والملائكة ، بل هم منكرون للربوبية ، وهم المُسمَّون بالباطنية[1].

إنّ هؤلاء وغيرهم من الفرق المبتدعة قديماً وحديثاً والقادم منهم ما كان لهم أن يزلوا عن الطريق السوي لو أنهم اعتمدوا كتاب الله الكريم وسنة رسوله ﷺ ، وفهم سلف الأمة ، وإن من قال بترك أحاديث الآحاد عليه وزر ما أقدم عليه القوم ، وهذه المخالفات في الشريعة نتيجة أسباب من أعظمها عدم تعظيم السنة وتجريدها من دلالتها .

---

(١) الاعتصام للشاطبي ، انظر ، ج ١ ، ص ٢٨١ – ٣٢١ .

الفصل الثاني

رد بعض المسائل العقدية الثابتة بخبر الآحاد

وفيه :

- تمهيد
- المسائل التي يردّها المتكلمون في العقيدة بأدلتها .
- مسائل الإيمان .
- موقف الشيعة من القرآن .
- مسائل القدر .
- مسائل النبوات .
- مسائل اليوم الآخر .
- المدرسة العقلية الحديثة .

تمهيد

انتهى البحث في الباب الأول إلى أن خبر الآحاد الصحيح حجة في العقائد والأحكام ، وأن هذا مذهب أصحاب الرسول ﷺ والتابعين فهو مذهب أهل السنة والجماعة .

وتبين بطلان حجة من ردها بالظنّ وبقولهم إنها ظنية لا تفيد اليقين واستدلوا بآيات من القرآن الكريم تنهى عن الظن ، هذا الظن الذي نعاه الله على المشركين ، لأن الله أنكر على المشركين الأخذ بالظن إنكاراً مطلقاً .

بل إن ((من هؤلاء من رفض الاحتجاج في العقيدة بالقرآن الكريم والحديث الشريف المتواتر ما لم تكن دلالة كل منهما قطعية لا مجال فيها لأي احتمال ، أما الأحاديث الآحاد فهي مرفوضة عندهم رفضاً كلياً ، فلا يجيزون الاحتجاج بها لا في العقيدة ولا في الأحكام ، ومن هؤلاء المعتزلة والخوارج .. كما نُقلت أقوال الجهابذة منهم الذين أصروا على أن يخوضوا لجة البحر ، فإذا هم يكتشفون في غروب العمر أنهم قد ضيعوا عمرهم في قيل و قال ، ولم يحصلوا في مسيرتهم على ما نشدوه طويلاً ولم يصلوا إلى اليقين الذي زعموا إن نصوص الوحي لا توصل إليه ، و إذا بأعلامهم يذمّون مسراهم ، وينكصون عما كانوا عليه ، ويوصون أتباعهم بالاستفادة من تجربتهم)) [1] .

ثم تبين في الباب الثالث من هذا البحث أحاديث الآحاد التي تثبت بها مسائل العقيدة وأنكر حجيتها المخالفون ، وفي بيان منهج تلك الفرق المخالفة المبتدعة من تلك الأحاديث يتضح ما يلي :

أولاً: لقد عُرف عن الخوارج المتقدمون اطرّاحهم للسنة عموماً وأخذهم بالقرآن فوقعوا في أصحاب رسول الله ﷺ الذين هم رواة السنة ونقلتها[2] .

ثانياً: أما المعتزلة فإنهم لا يأخذون بحديث الآحاد ، بل حتى المتواتر قرآناً وسنة إن لم تكن دلالته قطعية وهكذا المتكلمون ويلحق بهؤلاء الزيدية والشيعة

---

(١) أصل الاعتقاد ، د . عمر الأشقر ، ص ٨ ، ٩ .

(٢) والأباضية فرقة من الخوارج يدّعون أن لديهم مسنداً للربيع ((وقد أجمع أهل العلم – أهل السنة والجماعة – قديماً وحديثاً على أن أصح الكتب بعد كتاب الله هما صحيح البخاري وصحيح مسلم لكن طائفة الأباضية تشذ عن هذا وترى أن مسند الربيع ابن حبيب من أئمتهم الأوائل وأصح كتاب بعد كتاب الله . مع أن هذا المسند لم تتلقاه الأمة بالقبول ولا تتوافر فيه شروط الصحة مليء بالمراسيل والمجاهيل منقطع الإسناد عن الربيع نفسه حيث كتب في القرن الخامس . ومن عقيدتهم عدم الاحتجاج بخبر الآحاد في العقيدة ؛ فكيف حال عقيدتهم ومسندهم مروي عن واحد !؟؟ . الخوارج مناهجهم وأصولهم ، د ناصر العقل ، دار القاسم ، الرياض ط٢ سنة ١٤١٧هـ ص ٧٢ ؛ وانظر الفتاوى لابن تيمية ج ١٣ ، ص ٤٨ ، ٤٩ . .

وأصحاب التنوير العقلانيون المعاصرون فإنهم اعتزاليو المذهب والفكر .

ثالثاً : الأشاعرة ومن اتبعهم ، وهم يعتقدون قول من سبقهم في حديث الآحاد ، وكذلك المتواتر ظني الدلالة .

غير إنهم في مسائل العقيدة ، قالوا : إن أخبار الغيبيات مثل المعاد وأحوال القبر والصراط والجنة والنار تؤخذ بالسمع ، فأجازوا العمل بأخبار الآحاد فيما بعد الموت واعتقاد ما دلت عليه ، وهذا تناقض من القوم ، وتحكم فيما جرت العادة بعدم قبوله وهو التفريق بين المتماثلين ، ذلك أن أخبار المعاد ، وأخبار الصفات والقدر والإيمان لا يستدل عليها إلا بالوحي كتاباً و سنة صحيحة ، لأنها من علم الغيب ، فإن أرادوا التوفيق ، لأنهم يدّعون أنهم أهل السنة ، ثم قامت الحجة عليهم بتوافق أقوالهم في المقال والاعتقاد مع خصومهم المعتزلة ، فقالوا بهذا التقسيم :إن مسائل العقيدة منها ما يعلم بالعقل ومنها ما يعلم بالنص. وهذا هو التفريق بين المتماثلين ولا شك أنه توفيق غير موفق.

قال شيخ الإسلام : ((ولهذا لا يوجد لنفاة بعض الصفات دون بعض ، الذين يوجبون فيما نفوه إما التفويض ، وإما التأويل المخالف لمقتضى اللفظ قانون مستقيم، فإذا قيل لهم : لم تأولتم هذا وأقررتم هذا والسؤال فيهما واحد ؟ لم يكن لهم جواب صحيح)) [1] .

ويقاس على هذا أمور ومسائل العقيدة التي أثبتوا بعضها بالعقل كالإيمان والقدر والنبوات وتلك التي ذكروا أنها تؤخذ بالسمع كالمعاد .

والأمة الإسلامية في الغالب تتبع لهذا الفكر الأشعري مالكية وشافعية ، أما الأحناف فإنهم ماتريدية . وجميعهم يعتمدون علم الكلام في عقيدتهم القائم على المقدمات والرأي بعيداً عن الأخذ بالأدلة من الكتاب والسنة وفهم سلف الأمة .

---

(١) الرسالة التدمرية لابن تيمية ، ص ٤٥ .

المسائل التي ردّها المتكلمون في العقيدة :

اتفق المتكلون في الجملة على ردّ بعض مسائل العقيدة ومخالفة أهل السنة ، وقد عُرضت غالب تلك المسائل في الباب الثاني من هذا البحث ورُدّ عليهم على ضوء منهج أهل السنة والجماعة ، وعلى هذا فسيتم ذكرها إجمالاً [1] :

مسألة : أول واجب على المكلف : قالوا بالنظر والشك والحدوث وأعرضوا عن دلائل الكتاب والسنة في معرفة أول الواجبات وهو الشهادتان .

مسألة : تقديم العقل على النقل : وما ثبت بالتواتر وخالفه العقل فإما أن يفوض أو يؤول ، وما ثبت بأخبار الآحاد فإنه لا يقبل في العقيدة ، فأصبح مصدر التلقي عندهم العقل وليس النص من الكتاب والسنة الصحيحة ، وقد ألّف شيخ الإسلام كتاباً في مجلدات للرد على أهل هذه المقالات ، وأثبت أن النقل لا يتعارض مع العقل ، فإن النقل الصحيح إذا وافق عقلاً صريحاً تواءما وامتثلا لأمر الله تعالى وما جاء عن الرسول ﷺ .

مسألة التوحيد : وهو الهدف الذي أرسلت من أجله الرسل ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [2].

والتوحيد عند أهل السنة والجماعة هو توحيد الألوهية المتضمن توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وأن توحيد الألوهية يتعلق بإفراد الله عز وجل بالعبادة والخضوع و الإنابة إليه وحده جلّ وعلا ، والابتعاد عن الإشراك مع الله آلهة أخرى.

أما الجهمية فقد أدرجوا نفي الصفات في مسمى التوحيد ، فصار من قال أن لله علماً أو قدرة أو أنه يُرى في الآخرة ، أو أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق، يقولون إنه مشبه ليس بموحد وزاد عليهم غلاة الجهمية فنفوا أسماءه الحسنى .

وعلى نهج هؤلاء الجهمية صار خلفهم المعتزلة فقالوا : ((إن الدين قائم عندهم على أصول خمسة : أولها التوحيد وهو نفي صفات الله تعالى لإن إثباتها يعني تعدد القدماء ، وهذا هو الشرك فيلزم الخلاص منه أن تنفي الصفات وإثبات

---

(١) الرسالة التدمرية ، انظر ص ١٧٩ -١٨٣؛ الإنصاف للباقلاني ص١٣؛ الإرشاد للحويني ص ٣، ١٠ .
(٢) سورة النحل ٣٦ .

الأسماء التي وردت بالقرآن أما السنة أخبار الآحاد فلا يؤخذ بها في مسائل العقيدة .

أما المتكلمون الأشاعرة والماتريدية والكلابية فيقولون : هو واحد في ذاته لا قسيم له ، وواحد في صفاته لا شبيه له ، وواحد في أفعاله لا شريك له ، وأشهرها الثالث وهو توحيد الأفعال وهو أن خالق العالم واحد ، وأن هذا هو معنى قولنا : لا إله إلا الله حتى يجعلون معنى الإلهية القدرة على الاختراع .

أما الصوفية : فإن غاية ما عندهم من التوحيد هو شهود هذا التوحيد وهو الفناء في توحيد الربوبية)) [1] .

مسائل الإيمان :

والإيمان عند أهل السنة والجماعة : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان يزيد وينقص فأعلاه شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق ، وصاحب الكبيرة تحت المشيئة مؤمن بإيمانه فاسق بمعصيته معه مطلق إيمان وليس الإيمان المطلق بعكس مقالة فرق المتكلمين .

أما الخوارج : فإن كل الأعمال إيمان فإذا ارتكب كبيرة خلد في النار ، وزال إيمانه فهو كافر . فكل عمل شرط في صحة الإيمان فإذا زال الشرط زال المشروط.

والمعتزلة : يوافقون الخوارج في قولهم بالخلود في النار ، وفي الدنيا قالوا أنه لا مؤمن ولا كافر فهو في منزلة بين المنزلتين .

أما الأشاعرة والماتريدية فقالوا : إن الإيمان قول واعتقاد ومنهم من قال إنه التصديق فقط وهذا هو الإرجاء ، إلا أنهم قالوا إن الأعمال تزيد في الدرجات .

أما الجهمية فقالوا بالإرجاء وهو أنه لا يضر مع الإيمان معصية كما أنه لا ينفع مع الكفر طاعة [2] .

---

(١) نفس المصدر ، انظر ص ١٨٤ – ١٨٧ .

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، انظر ج٧ ، ص ١٩٤ وما بعدها .

مسائل أسماء الله وصفاته جلّ وعلا :

وأهل السنة والجماعة يثبتون ما نزل في كتاب الله تعالى من الأسماء والصفات وما أخبر به المصطفى ﷺ في سنته الصحيحة .

ويعتقدون ما أخبر عنه المصطفى ﷺ في الصحيح من الأسماء التي استأثر بها في علم الغيب عنده أو أخبر بها أحداً من خلقه .

أما الجهمية فينفون أسماء الله وصفاته وعدوا ذلك ديناً ! . ولحق بهم المعتزلة فنفوا صفات الله وعدوا ذلك توحيداً ! وأما المتكلمون : فأثبتوا سبعاً أو أكثر بالنسبة للماتريدية وأوّلوا النصوص التي تتعارض مع مقدمات الدليل عندهم وقالوا إن ذلك يتضمن التركيب والحركة والحدوث ، وقصدوا بذلك تنزيها ! .

فنفوا النزول والاستواء والمجيء والضحك والغضب والرضا والوجه لله تعالى ..

مسائل علو الله واستوائه على عرشه :

وأهل السنة والجماعة يعتقدون أن الله فوق سمواته وأنه بائن من خلقه مستوٍ على عرشه ، وقد جاءت الأدلة من القرآن والسنة مؤيدة لما ذهب إليه السلف .

أما الجهمية فأنكروا علوا الله على خلقه واستواءه على عرشه .

وفسر المعتزلة الاستواء بالاستيلاء .

وكذا المتكلمون عامة قالوا بمثل هذا .

وقد ألف الإمام الذهبي كتابه العلو للعلي الغفار للردّ عليهم وحشد الأدلة المتضافرة من الكتاب والسنة وأقوال الأئمة من أهل السنة ، وألّف ابن القيم كتابه القيّم اجتماع الجيوش الإسلامية في الرد على الجهمية والمعطلة لإثبات علو الله سبحانه .

وفي هذين المؤلفين دلالة وحجة قائمة لمن أراد الحق واتباع أهله ، وهذا يعني أن تلك الأدلة الصحيحة قد رُدت وأهمل العمل بها ، وطائفة من هؤلاء جنحت إلى تأويل الصحيح .

مسائل القرآن ، كلام الله تعالى :

والقرآن العظيم كلام الله العزيز الحكيم ، ليس شيء منه كلاماً لغيره لا

جبريل ولا محمد ولا غيرهما ، منزّل من الله ، وأنه يتكلم بما شاء متى يشاء ، وأنه يُسمع كلامه لخلقه ، وأن كلام الله غير مخلوق ، منه بدأ وإليه يعود ، حروف وأصوات، فالكلام كلام البارئ والصوت صوت القارئ ، صفة من صفات الله العظمى . وقد ألف ابن تيمية مجلداً وافياً عن كلام الله تعالى [1] .

أما المتكلمون والمخالفون لمنهج أهل السنة والجماعة فكانوا فرقاً و أحزاباً في مفهومهم للقرآن كلام الله تعالى :

فالأولى : وهم الفلاسفة ومن تبعهم كابن سيناء وابن عربي وابن سبعين صاحبي الإتحاد والحلول ، فقالوا : إن كلام الله ليس له وجود خارج نفس العبد بل هو ما يفيض على النفوس من المعاني ، فالكلام الذي سمعه موسى لم يكن موجوداً إلا في نفسه .

الثانية : الجهمية من المعتزلة وغيرهم الذين يقولون كلام الله مخلوق يخلقه في بعض الأجسام ، فمن ذلك الجسم ابتدأ لا من الله ، فلا يقوم بالله كلام .

وهؤلاء هم الذين دعوا الخلفاء إلى مقالتهم حتى امْتُحِن الناس في القرآن بالمحنة المشهورة في إمارة المأمون وغيره فتصدى لهم الإمام أحمد رحمه الله و﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [2].

الثالثة : الكلابية والأشعرية والماتريدية ، فقالوا إن كلام الله معنى قائم بذات الله ، هو الأمر بكل مأمور أمر الله به ، والخبر عن كل مخبر اخبر الله عنه ، إن عبر عنه بالعربية كان قرآناً ..! .

وإن عبر عنه بالعبرية كان توراة ..!

وإن عبر عنه بالسريانية كان إنجيلاً..!.

قال الأشعري : هو معنى واحد في الأزل ، أمر ونهي و خبر وهو الكلام النفسي عندهم وما في المصحف عبارة عن كلام الله.

وقال الماتريدي : وما في المصحف حكاية عن كلام الله .

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، انظر ، ج١٢ ، ص ١١٧ ، وما بعدها .

(٢) سورة إبراهيم ٢٧ .

الرابعة : طائفة السالمية ومن تبعهم ، قالوا : إن كلام الله حروف وأصوات قديمة أزلية ، وهؤلاء يوافقون الأشاعرة والكلابية في أن تكليم الله لعباده ليس إلا مجرد خلق إدراك للمتكلم ، ليس هو أمر منفصل عن المستمع .

الخامسة : الكرامية والهشامية ومن وافقهم ، قالوا : إن كلام الله حادث قائم بذات الله بعد أن لم يكن متكلماً بكلام ، ووجود كلام الله في الأزل ممتنع عندهم .

وأما أهل الحق ، أهل السنة والجماعة فقد عظموا ربهم وامتثلوا كلام مولاهم وسنة نبيهم ﷺ ، فقالوا : إن الله تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء ، وأنه يتكلم بصوت كما جاءت به الآثار ، والقرآن وغيره من الكتب الإلهية كلام الله تكلم الله به بمشيئته وقدرته ، ليس ببائن عنه مخلوقاً ، ولا يقولون إنه صار متكلماً بعد إن لم يكن متكلماً، ولا أن كلام الله تعالى من حيث هو ، هو حادث ، بل مازال متكلماً إذا شاء.

ويقولون بما جاءت به النصوص النبوية الصحيحة ، ودلت عليه العقول الزكية الصريحة ، فلا ينفون عن الله تعالى صفات الكمال سبحانه وتعالى . (١)

موقف الشيعة من القرآن :

وقد زاد ضلال هؤلاء الشيعة عن تلك الفرق بقولهم الإفك في كتاب الله فقالوا: إنه ناقص ؛ فقد ألف كبير علماء النجف تقي النوري الطبرسي كتابه المسمى ((فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب)) ، جمع فيه مئات من النصوص عن علماء الشيعة قديماً وحديثاً أنهم يعتقدون بوجود النقص والتحريف في القرآن الكريم .

ومما ادعوه أن سورة من القرآن تسمى سورة ((الولاية)) قد أُسقطت من المصحف العثماني .

أما الكليني فقد جاء في كتابه الكافي بمئات الآيات التي زعم أن الله أنزلها ، وقد عُلم من مصادرهم أن الكافي بمثابة الصحيحين عند أهل السنة ، فهو مرجعهم في أحاديثهم المكذوبة على الله ورسوله ، ومن كذبهم قوله عن أبي عبد الله في قول الله عز وجل : ومن يطع الله ورسوله في ولاية علي وولاية الأئمة من بعده فقد فاز

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، انظر ج١٢ ، ص ١٩٣ وما بعدها .

فوزاً عظيماً . هكذا أنزلت ! [1] .

وعن جعفر الصادق قال : وإن عندنا مصحف فاطمة عليها السلام وما مصحف فاطمة ؟! قال : مصحف فيه مثل قرآنكم هذا ثلاث مرات والله ما فيه من قرآنكم حرف واحد)) [2].

وأما السنة فليست بأحسن حالاً ، فلقد ردوا الروايات الصحيحة عن الصحابة رضي الله عنهم ، وأتوا بأحاديث موضوعة عن آل البيت مثل روايات الكليني وإيراده آيات ولاية آل البيت كذباً وبهتاناً ، وبهذا غيروا معالم التنزيل وقالوا على الله كذباً وجوراً .

ثم قالوا بالعصمة للأئمة ، وقالوا بالإمامة وأنها ركن الدين الأعظم والتقية والولاية ، والبداء على الله ، ورجعة المهدي المزعوم عندهم [3].

فدينهم دين قائم على التقية والكذب على الله ورسوله ، ثم أنهم جحدوا علم الله وأحاطته بكل شيء ، فقالوا : بالبداء على الله ، تنزه الله عن قولهم وإفكهم [4].

بل إنهم غلوا في أئمتهم بتفضيلهم على سائر الأنبياء كما ملئت بذلك كتبهم القديمة والحديثة كالكافي وما كتبه الخميني في العصر الحديث .

وبغضهم للصحابة مشهور معلوم ، وهم الذين شهد الله لهم بالفوز والنجاة ، وأنه قد رضي عنهم ووصفهم الله بأنهم أشداء على الكفار رحماء بينهم . وما هذه التخبطات إلا معاول هدم في دين الله ، ويأبى الله إلا أن يتم دينه .

مسائل القدر :

تقاسم الضلال في هذا الباب فرقتي الجبرية والقدرية .

أما الجبرية فقالوا : الكون كله بقضائه وقدره فغلوا في إثبات القدر وزعموا أن إيمان أي واحد منهم مثل إيمان جبريل .

وقالوا إن العبد لا قدرة له البتة على الفعل ، وإنما هو مجبور على فعله وحركته في الفعل بمثابة حركة النبات والجماد ، ومن هنا فإنه لا يضر مع الإيمان ذنب، كما لا

---

(١) الكافي للكليني ، ج١ ، ص ٣٤٢ . وانظر الشيعة وأهل البيت ، إحسان إلهي ظهير ، ص ١٧١ وغيرها.

(٢) نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٨٦ .

(٣) الخطوط العريضة لمحب الدين الخطيب ، انظر ، ص ٩ – ١٠ .

(٤) وانظر ، فرق معاصرة ، د غالب عواجي ، المكتبة العصرية ، ١٤٢٢هـ ، ج١ ، ص ٤٢٠ وما بعدها.

ينفع مع الكفر طاعة ، وهذا تعدٍ على الله سبحانه وتعالى الذي خلق الإنسان مميزاً عاقلاً ثم هداه النجدين طريق الخير وطريق الشر . وجبر العبد على فعله لا يتفق مع مضمون قوله تعالى ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ (١) .

أما القدرية : وهم نفاة القدر الذين يزعمون أنهم يخلقون أفعالهم فإن من زعم خالقاً غير الله فقد أشرك ، فكيف بمن يزعم أن كل أحد يخلق فعله ، ولهذا كانت القدرية مجوس هذه الأمة.

ولهذا أصّل المعتزلة فقالوا : بالعدل قاصدين بذلك أن العباد خالقين أفعالهم بقدرتهم حتى يحاسبهم الله عليها ، وليس من العدل أن يخلقها أو حتى يقدرها ثم يحاسبهم على مالا حيلة لهم فيه . وهذا مخالف للنصوص الصحيحة والعقول الصريحة.

ومنهم الذين يقولون إن الأمر أُنف أي فيما يستقبل فلم يقدّر ولم يعلم الله شيئاً من الأزل وهذا تعارض مع كتاب الله تعالى﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴾ (٢).

وقد توسط بين الجبرية والقدرية الذين قالوا بالكسب وهو أن العبد فاعل لفعله مجازاً وليس حقيقة وهاتان الفرقتان هم الأشاعرة والماتريدية وقد قالوا بنفي الحكمة والتعليل . وهذا معارض للشرع (٣) .

إن هذه الفرق ومن تبعهم قد أسسوا لأنفسهم أقوالاً في القدر ردت النصوص الصحيحة فلا يعمل بها ؛ ذلك أنهم أعرضوا عن خبر الآحاد وقالوا بعدم الأخذ به في أمر العقيدة ، فعُطلت الأحاديث وأحدثوا في الدين ما ليس منه .

أما أهل السنة والجماعة ، فيؤمنون بالقدر خيره وشره ، وأنه من الله تعالى ، ليس في العالم شيء يخرج عن تقديره ، والإيمان بالقدر على درجتين كل درجة تتضمن شيئين :

الأولى : العلم والكتابة : بأن الله علم ما الخلق عاملون ثم كتب في اللوح كل شيء ، والثانية المشيئة المطلقة لله وأن الله خالق كل شيء(٤) .

---

(١) سورة البقرة ٢٨٦.
(٢) سورة القمر آية ٤٩ .
(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، انظر ، ص ٢٧٢ ، وما بعدها .
(٤) انظر قطف الثمر في بيان عقيد أهل الأثر للعلامة محمد صديق خان القنوجي ، ص ٨٤ ، ٨٥ .

مسائل النبوات :

حصر المتكلمون دلائل النبوة في المعجزات :

ولا ريب أن المعجزات دليل صحيح ، لكن الدليل غير محصور في المعجزات ، فإن النبوة إنما يدعيها أصدق الصادقين أو أكذب الكاذبين ، ولا يلتبس هذا بهذا إلا على أجهل الجاهلين ، بل قرائن أحوالهما تعرب عنهما .

قال حسان رضي الله عنه :

لو لم يكن فيه آيات مبينة كانت بديهته تأتيك بالخبر [1]

وصدق الأنبياء وهم كذلك حقاً ، دليل من دلائل نبوتهم فقد أخبروا أممهم بما سيكون من انتصارهم وخذلان عدوهم ، وما جاءوا به من شرائع تبين أنهم على حق، وما جاءوا به من المصلحة والرحمة والهدى والخير .

فهذا هرقل ملك الروم يعلم أن محمداً ﷺ رسولاً وأنه على حق .

وإخباره ﷺ بما فضله ربه سبحانه وحباه من الأوصاف والمراتب العلا وأنه خليل الرحمن وحبيب الله ، وأنه خاتم الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده .

وإنه ﷺ هو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى ، بالحق والهدى ، وأن الأنبياء صلوات الله عليهم معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه في تبليغ رسالته باتفاق الأمة ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومون كما عصم الأنبياء .

وقد تخبط النصارى في قولهم بعصمة عيسى عليه الصلاة والسلام وقالوا : إنه ابن الله ، ثم اعتقدوا أن اليهود قتلوه ثم صلبوه فعبدوا الصليب ؟!.

وقد شابههم فرقة الشيعة وقالوا : بعصمة أئمتهم وأن لديهم مرتبة لا يبلغها ملك معقرب ، ولا نبي مرسل ، وقالوا : إنهم اثني عشر معصوماً أما آخرهم فغائب منتظر ! فقدّسوا أئمتهم ونذروا لهم وقربوا قرباناً وعطلوا الجمعة والجماعة والجهاد وأقاموا عيد عاشوراء !.

إن الذين أعرضوا عن قبول خبر الآحاد في العقيدة قد ردّوا هذه المسائل في

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ، انظر ص ١٥٠ وما بعدها .

العقيدة وغيرها في باب النبوات ، وأحدث بعضعهم في النبوات أقوالاً مخالفة للحق كهؤلاء.

مسائل اليوم الآخر :

الذين قالوا بمعاد الأبدان دون الأرواح ، وهؤلاء هم الجهمية والمعتزلة ؛ ذلك أنهم قالوا إن الأرواح أعراض والأعراض لا تعود بعد عدمها ، والصحيح الذي دلت عليه الأدلة أن للروح خمس تعلقات بالبدن وأن أتمها وأكملها يوم بعث الأجسام، وأنها تتلذذ بالجنة وتتألم وتتعذب إن كانت من أهل النار [١] .

وأنكرت المعتزلة والفلاسفة سؤال القبر ونعيمه وعذابه والصراط والميزان بدعوى أنها لم تثبت بالعقل [٢].

وأنكرت القدرية والمعتزلة والخوارج والرافضة حوض محمد ﷺ . [٣]

أما الشفاعة فقد اعتقد الصوفية والباطنية والشيعة أنها تسأل من أوليائهم أحياء أو أموات . [٤]

والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة محمد ﷺ في أهل الكبائر . [٥]

قال الباقلاني : ((واعلم أن المعتزلة افترقت فرقتين ، فقوم منهم أنكروا الشفاعة أصلاً ورأساً وردّوا الأخبار الصحيحة الواردة فيها ، وما دل عليه القرآن من ذلك ، وقوم منهم قالوا : إن صاحب الكبيرة الذي مات من غير توبة فلا شفاعة له عندهم ، وكلا القولين باطل . [٦]

وقد أنكرت الجهمية والمعتزلة أن تكون الجنة والنار مخلوقتان ، وزعم قوم من الجهمية أن الجنة والنار تفنيان [٧].

---

(١) الروح لابن القيم ، ص ٤٠ – ٨٠.
؛ انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، لابن تيمية ، ج٤ ، ص ٩٧ – ١٠٠ .
(٢) شرح العقيدة الواسطية ، ص ٢٠١ .
(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج٤ ، ص ٥٥ .
(٤) أصول الدين للبغدادي ، ص ٢٣٨ .
(٥) الفصل في الملل والأهواء والنحل ، لابن حزم ، ج٤ ، ص ١٥٣ .
(٦) الإنصاف للباقلاني ، ص ١٤٩ .
(٧) أصول الدين للبغداي ، ص ٢٣٨ .

وقالت المعتزلة والخوارج بخلود أهل الكبائر في النار بشرط عدم التوبة عند المعتزلة [1].

وهذه المسائل وغيرها قد دُعّمت بالأدلة وأُجيب عن مغالطات أهلها في مظانّها ، فكانت الإشارة في هذا الفصل لبيان نتائج إعراض أولئك عن خبر الآحاد الصحيح وعدم الاحتجاج به في العقيدة .

المدرسة العقلية الحديثة وموقفها من خبر الآحاد :

انبرى في هذا العصر عقلانيون يمجدون أولئك المتنورين أصحاب المذهب العقلاني، الذين يشككون في السنة النبوية ، وأن المعتزلة هم أصحاب الفكر النيّر والحجة الغائبة ؛ إنها دعوى تردد كل يوم من قبل دعاة المدنية والحضارة ومواكبة الغرب، وتهدر بسببها أصح الأحاديث وأقواها دلالة ، إنهم ولا شك معتزلة هذا العصر .

قال الشيخ محمد عبده : ((وأما ما ورد في حديث مريم وعيسى من أن الشيطان لم يمسهما ، وحديث إسلام شيطان النبي ﷺ ، وحديث إزالة حظ الشيطان من قلبه فهو من الأخبار الظنّية لأنه من رواية الآحاد ، ولما كان موضوعها عالم الغيب ، والإيمان بالغيب من قسم العقائد وهي لا يؤخذ فيها بالظن لقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴾ [2]، كنا غير مكلفين الإيمان بمضمون تلك الأحاديث في عقائدنا)) [3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا : ((الشريعة عندنا تشمل العقائد والعبرة فيها بالدلالة القطعية ، وجميع العقائد التي تتوقف عليها صحة الإسلام ثابتة بنصوص القرآن وإجماع المسلمين ، وإثبات الألوهية والنبوة منها بالبراهين العقلية ، ولا يوجد شيء منها يتوقف على أحاديث الآحاد التي يمكن الارتياب في بعضها .

وكذلك أصول العبادات كلها قطعية ثابتة بالقرآن والسنة العملية المتواترة التي لا تتوقف على أحاديث الآحاد .

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، ج٤ ، ص ١٥٣ .

(٢) سورة النجم ٢٨ .

(٣) تفسير المنار ، محمد رشيد رضا ، دار المنار ، ط الثالثة ، ١٣٨٧هـ ، مصر ، ج٣ ، ص ٢٩٢ .

وما ثبت من أحكام العبادات بأحاديث الآحاد ولم يجمع عليه أئمة المسلمين فلا تتوقف عليه صحة الإسلام وإن كان صحيحاً في نفسه)) [1].

وقال الشيخ شلتوت : ((نجد نصوص العلماء من متكلمين وأصوليين مجتمعة على أن خبر الآحاد لا يفيد اليقين ، فلا تثبت به عقيدة ، ونجد المحققين من العلماء يصفون ذلك بأنه ضروري لا يصح أن ينازع أحد في شيء منه)) [2] .

وقال محمد عمارة : ((إذا وجدت حديثاً منسوباً إلى رواة عدل لا ألجم عقلي وأمنعه من النظر بحجة أن السند هو كل شيء ، لأنه لابد أن يكون لعقلي مجال في المتن ، ولا بد أن أحاكم هذا الذي هو ظني الثبوت إلى ما هو قطعي الثبوت وهو كتاب الله وحقائق العلم)) [3]. وقد شكك أصحاب هذه المدرسة العقلية الحديثة لأن عقولهم لم تسلم للنص ثم حملوا الأحاديث على أنها ظنّية ، وأنها أحاديث آحاد ، والحق أنها أحاديث صحيحة وأغلبها في الصحيحين تلقتها الأمة بالقبول في الأصول والفروع .

أما صحاب التيار العقلي الصرف فإنهم علمانيون ينتسبون إلى الإسلام ويكيدون للإسلام وأهله فإنهم عملاء دعاة إلى الإلحاد والتبعية وهم أصحاب الفكر اللبرالي ، فهم ضد الكتاب والسنة وإجماع الأمة .

أما الأحاديث التي تنكرها المدرسة العقلية الحديثة فتتمثل في :

حديث نزول عيسى عليه السلام آخر الزمان .

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : ((والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم عليه السلام حكماً مقسطاً ، فيكسر الصليب ويقتل الخنزير ، ويضع الجزية ويفيض المال حتى لا يقبله أحد)) [4].

قال ابن كثير رحمه الله : ((فأخبر تعالى أنه قد رفعه – أي عيسى عليه السلام – بعدما توفاه بالنوم على الصحيح المقطوع به وخلصه ممن كان أراد أذيته من اليهود الذين وشوا به إلى بعض الملوك الكفرة في ذلك الزمان)) [5].

---

(١) مجلة المنار ، مجلد ١٥ ، ص ٢٧ – ٢٨ .

(٢) مجلة الرسالة ، عدد ٥١٤ ، ١٣٦٢هـ ، ص ٤٤٣ .

(٣) جريدة المسلمون عدد ٢٧٦ ، ١٤١٠هـ ص ١١ ؛ وانظر موقف المدرسة العقلية من السنة النبوية ، الأمين الصادق ، ج٢ ، ص ١٩٦ ، وما بعدها .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء، باب نزول عيسى بن مريم عليه السلام ج٤، ص ٤١٤ . ؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب نزول عيسى بن مريم ج٢ ، ص ١٨٩. .

(٥) البداية والنهاية ، ج٢ ، ص ٩١ .

قال الشيخ أحمد شاكر : ((وقد لعب المجددون أو المجردون في عصرنا الذي نحيا فيه ، بهذه الأحاديث الدالة صراحة وحقاً على نزول عيسى ابن مريم عليه السلام في آخر الزمان ، قبل انقضاء الحياة الدنيا بالتأويل المنطوي على الإنكار تارة وبالإنكار الصريح أخرى ! ذلك أنهم في حقيقة امرهم لا يؤمنون بالغيب ، أو لا يكادون يؤمنون ، وهي أحاديث متواترة المعنى في مجموعها ، يعلم مضمون ما فيها من الدين بالضرورة فلا يجديهم الإنكار ولا التأويل)) (١).

وقال عبد الله الغماري في رده على الشيخ شلتوت : ((وبعد فإني أرى أن كل من يماري في هذا الأمر بعد هذا البيان فإنه مبتدع ضال .. وليست المسالة مسألة خلاف يعذر فيها المخالف ، بل هي مسألة إجماع أجمعت عليه الأمة وتواترت به النصوص ، كما أنها من جنس الأخبار التي لا مجال فيها للرأي والاجتهاد)) (٢).

حديث موسى عليه السلام وملك الموت :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ، قال رسول الله ﷺ : ((أُرسل ملك الموت إلى موسى عليه السلام ، فلما جاءه صكه ففقأ عينه فرجع إلى ربه ، فقال أرسلتني إلى عبد لا يريد الموت . قال : فردّ الله إليه عينه ، وقال ارجع إليه ، فقل له : يضع يده على متن ثور فله بما غطت يده بكل شعرة سنة . قال : ربّ ثم مه ؟ قال : ثم الموت . قال : فالآن . فسأل الله أن يدنيه من الأرض المقدسة رمية حجر فقال رسول الله ﷺ :فلو كنت ثم ، لأريتكم قبره إلى جانب الطريق تحت الكثيب الأحمر)) (٣).

قال الإمام النووي : ((وقد أنكر بعض الملاحدة هذا الحديث وأنكر تصوره ، قالوا كيف يجوز على موسى فقء عين ملك الموت ؟! قال : وأجاب العلماء عن هذا بأجوبة أحدها : أنه لا يمتنع أن يكون موسى عليه السلام قد أذن له الله تعالى في هذه اللطمة ويكون هذا امتحاناً للملطوم ، والله سبحانه وتعالى يفعل في خلقه ما يشاء

---

(١) مسند الإمام أحمد تحقيق أحمد شاكر ج١٢ ، ص ٢٥٧ .

(٢) مشكلات الأحاديث ، تأليف جماعة من نوابغ العلماء ، تصحيح زكريا يوسف ، مكتبة المتنبي ، مطبعة الإمام ، القاهرة ، ص ١١٢ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الأنبياء ، باب وفاة موسى ج٦ ، ص ٤٤٠ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الفضائل ، باب فضائل موسى ج ١٥، ص ١٢٨.

ويمتحنهم بما أراد .

والثاني : أن موسى عليه السلام لم يعلم أنه ملك الموت من عند الله وظن أنه رجل قصده يريد نفسه فدافعه عنها فأدت المدافعة إلى فقء عينه لا أنه قصدها بالفقء وتؤيده رواية صكه وهذا هو جواب الإمام أبي بكر بن خزيمة وغيره من المتقدمين ، وليس في الحديث تصريح بأنه تعمد فقء عينه)) [1].

حديث سحر النبي ﷺ :

عن عائشة رضي الله عنها ، قالت : ((سُحر رسول الله ﷺ حتى أنه ليخيل إليه أنه يفعل الشيء وما فعله حتى إذا كان ذات يوم وهو عندي دعا الله ودعاه ثم قال : ((أُشعرت يا عائشة أن الله قد أفتاني فيما استفتيته فيه ؟ قلت : وما ذاك يا رسول الله ؟ قال : جاءني رجلان فجلس أحدهما عند رأسي والآخر عند رجلي ثم قال أحدهما لصاحبه : ما وجع الرجل ، قال :مطبوب .. قال : ومن طبه؟ قال : لبيد بن الأعصم اليهودي من بني زريق ؟ . قال : في ماذا قال : في بئر ذي أروان. قالت : فذهب النبي ﷺ في أناس من أصحابه إلى البئر فنظر إليها وعليها نخل ثم رجع إلى عائشة ، قلت : يا رسول الله أفأخرجته ؟ ، قال : لا أما أنا فقد عافاني الله وشفاني وخشيت أن أُثّور على الناس منه شراً وأمر بها فدفنت))[2].

أثر السحر على رسول الله ﷺ :

يرى جمهور المفسرين : ((إن سبب نزول المعوذتين هو ماكان من سحر لبيد بن الأعصم لرسول الله ﷺ ، وقد روى المحدثون قصة السحر في الصحاح والسنن والمسانيد وغيرها من الكتب التي تتعرض لذكر أحوال النبي ﷺ ، ولقد ذهب إلى نفي السحر وأثره ، المعتزلة ومن سار على نهجهم ونفي هؤلاء أن النبي ﷺ سحر من باب أولى ..

وهذه المسألة مما استفاض الكلام فيها .. لكن فيما يخص هذا الحديث، إنه يفيد العلم عند جماهير العلماء من المسلمين لما احتف به من القرائن المؤدية إلى

---

(١) شرح النووي ، ج١٥ ، ص ١٢٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب السحر ، ج ١٠، ٢٣٥ .

؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب السلام ، باب السحر ، ج ١٤ ، ص ١٧٤ .

الجزم بأنه صدق ، لأنه مما روي في الصحيحين وقد أجمعت الأمة على صحة أحاديثهما والأمة لا تجتمع على ضلالة))[1].

((ومذهب أهل السنة والجماعة وجمهور علماء الأمة على إثبات السحر وأن له حقيقة كحقيقة غيره من الأشياء الثابتة خلافاً لمن أنكر ذلك ونفى حقيقته ، وقد أنكر بعض المبتدعة هذا الحديث بسبب آخر وهو أنه يحط من منصب النبوة ويشكك فيها ، وان تجويزه يمنع الثقة بالشرع ، وهذا الذي ادعاه هؤلاء المبتدعة باطل لأن الدلائل القطعية قد قامت على صدقه وصحته ، وعصمة النبي ﷺ فيما يتعلق بالتبليغ والمعجزة شاهدة بذلك ، وتجويز ما قام الدليل بخلافه باطل))[2].

٤ – حديث شق صدر النبي ﷺ وإخراج حظ الشيطان منه :

عن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال : ((إن رسول الله ﷺ أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج منه علقة ، فقال : هذا حظ الشيطان منك . ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ثم أعاده إلى مكانه . وجاء الغلمان يسعون إلى أمه (يعني ظئره) فقالوا إن محمداً قد قتل . فاستقبلوه وهو منتقع اللون . وقال أنس : وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره))[3]. قال النووي : ظئره : أي مرضعته .

حديث المعراج :

عن أبي ذر رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((فرج سقف بيتي وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغها في صدري ثم أطبقه ثم أخذ بيدي فعرج بي إلى السماء .. والحديث بتمامه تقدم ذكره في معجزاته ﷺ))[4] . قال القاضي عياض رحمه الله : ((وفي علو منزلة نبينا ﷺ وارتفاعه فوق منازل سائر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين وبلوغه حيث بلغ من ملكوت السموات دليل على علو درجته وإبانة فضله))[5].

---

(١) السحر بين الحقيقة والخيال ، د . أحمد الحمد ، مكتبة التراث بمكة ، ١٤٠٨هـ ، ص ١٢٢ وما بعدها.
(٢) شرح النووي ، ج ١٤ ، ص ١٧٤– ١٧٥ .
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات،ج٢ ، ص ٢١٦.
(٤) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ وفرض الصلوات، ج٢، ص٢١٧ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء والمعراج ، ج١ ، ص ٤٥٨.
(٥) شرح النووي ، ج٢ ، ص ٢٢١ .

حديث وقوع الذبابة في الإناء :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمسه كله ثم ليطرحه ، فإن في أحدى جناحيه داء وفي الأخرى شفاء))[1] .

قال الشيخ الخطابي في معالم السنن : ((وقد تكلم على هذا الحديث بعض من لا خلاق له وقال : كيف يكون هذا وكيف يجتمع الداء والشفاء في جناحي الذبابة وكيف تعلم ذلك من نفسها حتى تقدم جناح الداء وتؤخر جناح الشفاء .. ؟ .

قلت : وهذا سؤال جاهل أو متجاهل ، وإن الذي يجد في نفسه ونفوس عامة الحيوان قد جُمع فيها بين الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وهي أشياء متضادة إذا تلاقت تفاسدت ، ثم يرى أن الله سبحانه قد ألّف بينها وقهرها على الاجتماع وجعل منها قوى الحيوان التي بها بقاؤها وصلاحها لجدير أن لا ينكر اجتماع الداء والشفاء في جزأين من حيوان واحد ، وإن الذي ألهم النحلة أن تتخذ البيت العجيب الصنعة وأن تُعسّل فيه ، وألّهم الذرّة أن تكتسب قوتها وتدّخره لأوان حاجتها إليه ، هو الذي خلق الذبابة وجعل لها الهداية إلى أن تقدم جناحاً وتؤخر جناحاً لما أراد من الابتلاء الذي هو مدرجة التعبد والامتحان الذي هو مضمار التكليف . وفي كل شيء عبرة وحكمة وما يذكّر إلا أولوا الألباب))[2] .

وقال الشيخ أبو شهبه رحمه الله : ((ومن ثم نرى أن الحديث رواه سبعة من أئمة الحديث ، وسند كل منها صحيح فلا جرم أن أقول : إن حديث الذباب صحيح غاية الصحة ، من ناحية السند ، وأما من ناحية المتن فقد أثبت الطب الحديث بما لا يدع مجالاً للشك أن الحديث صحيح في معناه .

ولو أن الذين أجروا التجارب على الذباب حتى توصلوا إلى أن في الذباب مادة قاتلة للجراثيم التي تسبب الأمراض كانوا أطباء مسلمين لربما قال قائل : إنهم متحيزون للحديث ، ولكنهم جميعاً أطباء لا يمتون إلى الإسلام الحنيف بصلة ، ولكن

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب إذا وقع الذباب في الإناء ، ج١٠ ، ص ٢٥٠ .
؛ سنن أبي داود ، كتاب الأطعمة ، باب في الذباب يقع في الطعام ج٤ ، ص ١٨٢ وقال الشارح : ورواه النسائي وابن ماجة والدارمي والبيهقي .
؛ مسند الإمام أحمد ، ج٢ ، ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ ، ٢٤٦ .

(٢) سنن أبي داود ومعالم السنن للخطابي ، ج٤ ، ص ١٨٣ .

البحث وإثراء البحوث الطبية هو الذي هداهم إلى هذا ، وكل ما فعله الأطباء المسلمون هو ترجمة ما أجراه الأطباء الأجانب من تجارب .

نتيجة البحث :

وبذلك يحقق العلماء بأبحاثهم تفسير الحديث النبوي الذي يؤكد ضرورة غمس الذبابة كلها في السائل أو الغذاء إذا وقعت عليه لإفساد أثر الجراثيم المرضية التي تنقلها بأرجلها ، وكذلك يؤكد الحقيقة التي اشار إليها الحديث وهي أن في أحد جناحيها داء وفي الآخر شفاء ، وهو المواد المضادة التي تفرزها الفطريات الموجودة على بطنها والتي تخرج وتنطلق بوجود سائل حول الخلايا المستطيلة للفطريات)) [١].

قال الإمام ابن قتيبة : ((هذا حديث صحيح وأنه روي بألفاظ ، وإن من حمل أمر الدين على ما شاهد ، فجعل البهيمة لا تقول ، والطائر لا يسبح والذباب لا يعلم موضع السم وموضع الشفاء ، واعترض على ماجاء في الحديث مما لا يفهمه .. فإنه منسلخ من الإسلام معطل مخالف لما جاء به الرسول ﷺ ولما درج عليه خيار صحابته والتابعون . ومن كذب ببعض ما جاء به الرسول ﷺ كان كمن كذب به كله، وما علمت أحداً ينكر هذا إلا قوما من الدهرية ، وقد اتبعهم على ذلك قوم من أهل الكلام والجهمية)) [٢] .

الكمأة من المنّ ، والعجوة من الجنة وكلاهما شفاء للعين ومن السم .

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال ،قال رسول الله ﷺ : ((الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين ، والعجوة من الجنة وهي شفاء من السم)) [٣] .

قال أبو هريرة : ((فأخذت ثلاثة أكمؤ أو خمساً أو سبعاً فعصرتهن ، وجعلت ماءهن في قارورة ، وكحلت به جارية لي فبرأت)) [٤] .

كلب الصيد وكلب الماشية :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : ((من اقتنى كلباً إلا

---

(١) دفاع عن السنة للإمام محمد أبي شهبة ، ص ٣٣٥ ، ٣٥٠ .
(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة الدينوري ، ص ٢٢٩ .
(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب المنّ شفاء للعين ، ج١٠ ، ص ١٦٣ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الأشربة ، باب فضل الكمأة ومداواة العين بها ج ١٤ ، ص٣ .
(٤) سنن الترمذي ، كتاب الطب ، باب ما جاء في الكمأة والعجوة وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن ، ج٤ ، ص ٤٠١ .

كلب صيد أو ماشية انتقص كل يوم من أجره قيراطان)) [١].

الميت يعذب ببكاء أهله :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : ((إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه)) [٢]. قال النووي : والجمهور على أنه من وصّى بأن يُبكى ويناح عليه بعد موته فنفذت وصيته فهذا يعذب ببكاء أهله عليه . وأجمعوا على أنه البكاء بصوت ونياحة لا مجرد دمع العين .

عدم بقاء النفس بعد مائة سنة :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال ، قال رسول الله ﷺ : ((لا يبقى على ظهر الأرض بعد مائة سنة نفس منفوسه)) [٣].

محاجة الجنة والنار :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((تحاجت الجنة والنار فقالت النار : أوثرت بالمتكبرين والمتجبرين ، وقالت الجنة : مالي لا يدخلني إلا ضعفاء الناس و سقطهم ؟ قال الله تعالى للجنة : أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي ، وقال للنار : أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي ، ولكل واحدة منكما ملؤها فالنار لا تمتلىء حتى يضع الله رجله فتقول : قط قط . فهنالك تمتلىء ، ويزوى بعضها على بعض)) [٤] . وهذه الأحاديث أمثلة على ما رُدَّ من السنة الصحيحة بناء على أهواء العقلانيين وتخرصاتهم وظنونهم الجائرة في فهم السنة وتلقيها عن المصطفى ﷺ بالردّ ، وإن ردت من قبل الذين ينكرون حجية خبر الآحاد في العقيدة من قبل فإن المعاصرين ينكرون المعنى وما دل عليه ويجادلون فيه . بل يعدونه حشواً وظاهر من القول .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الذبائح والصيد ، باب من اقتنى كلباً ليس بكلب صيد أو ماشية ، ج٩، ص ٦٠٨.
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب المساقاة ، باب الأمر بقتل الكلاب ج ١٠، ص ٢٣٧.

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز باب قول النبي ﷺ يعذب الميت ببكاء أهله ، ج٣ ، ص ١٥١.
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنائز باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه ، ج٦ ، ص ٢٢٨ . .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العلم باب السمر في العلم ، ج١ ، ص ٢١١ .

(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، تفسير سورة ق باب ﴿ وتقول هل من مزيد﴾، ج٨ ، ص ٥٩٥ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنة ، باب النار يدخلها الجبارون ، ج١٧، ص ١٨١ .

الفصل الثالث

تعطيل بعض المسائل الشرعية

وفيه :

- تمهيد
- ذكر المسائل الشرعية المعطلة بأدلتها .

تمهيد

كان السلف يعتمدون الأدلة السمعية ، ويرجعون إليها دائماً ، ويحكمونها في الخلاف ، ولا يلتفتون إلى موافقتها للعقول أو مخالفتها .

وحين ظهر علم الكلام حذّروا منه وأنكروه لما فيه من الإعراض عن الأدلة السمعية ، ولما يسببه من الحيرة والشك وكثرة التقلب ؛ بل إننا لا نجد لهم أقوالاً في حكم التعبد والعمل والاعتقاد بخبر الواحد ، ذلك أنهم لا يفرقون بين المتواتر والآحاد من الأخبار ، بل إن حجة الخبر لديهم هي السبب الوحيد في قبوله ، ومتحتم إتباعه، والإنكار بشدة على من خالفه.

ثم أنهم لم يتدخلوا بعقولهم في أحكام الشريعة ؛ بل إن الدليل السمعي هو المقدم عندهم على ما يتوهمه العقل ، وما ذاك إلا لسلامة فطرهم عن الزيغ والشك والشبه ، وفي ذلك دليل صحيح على أن السمع الصحيح لا يخالف العقل الصريح أبداً. (١)

قال شيخ الإسلام : ((وبالجملة فما عرفت حديثاً صحيحاً إلا ويمكن تخريجه على الأصول الثابتة ، وقد تدبرت ما أمكنني من أدلة الشرع فما رأيت قياساً صحيحاً يخالف حديثاً صحيحاً ، كما أن المعقول الصريح لا يخالف المنقول الصحيح)) (٢) .

أما المعتزلة وجماعة من أهل الكلام فقالوا : إن العقل يمنع التعبد بخبر الآحاد ، ذلك أن التعبد به يؤدي إلى تحليل الحرام ، وتحريم الحلال ، لإمكان كونه كذباً من الباطن ، ففي العمل به مفسدة تخالف مقتضى القواعد الشرعية ، فلا بد أن يقيم الله على كل حكم برهانا قطعياً ، أما أن يحيلهم على دليل ظني يجوز العقل خطأه فلا ، لما يترتب عليه من قلب الحقائق واستباحة المحظورات مما هو خلاف حكمة الشارع.

وقالوا : يلزم منه التزام الضدين كما لو روي خبر في تحريم هذه العين وآخر في تحليلها ، واستويا في استيفاء شروط القبول ، فالعمل بهما معاً محال ،

---

(١) انظر خبر الآحاد في الحديث النبوي ، د . عبد الله الجبرين ، ص ١٣٧ وما بعدها .

(٢) مجمع فتاوى ابن تيمية ، ج٢٠ ، ص ٥٦٧ .

والعمل بأحدهما ترجيح بلا مرجح .

ومنها : لو جاز التعبد بخبر الواحد لجاز قبول خبر من ادعى النبوة بلا معجزة.

ومنها : قولهم : إنه قد اتفق على عدم قبول الآحاد في الأصول ، فدل على امتناعها في الفروع ، فلا فرق بينهما .

ومنها : لو جاز التعبد به لجاز نقل القرآن المتعبد بتلاوته بقراءة الآحاد وهو خلاف الإجماع .

وللإجابة عليهم ..يمكن القول :

إن فتوى النبي ﷺ وقضاؤه مقطوع بصحته ، فألحق بذلك حكم سائر المجتهدين بالحق ، ثم إن أفعال الله تعالى معللة بمصالح العباد ، والله تعالى كتب على نفسه الرحمة ، من غير أن يوجب عليه أحد شيئاً ، وإنما لتمام حكمته وإحسانه بالعباد كانت أفعاله وأوامره ونواهيه في غاية المناسبة ، وكان مما ينافي حكمته تكليف الخلق بما لا فائدة منه ، أو بما هو ضرر محض .

وأما قولهم بالتعارض : فيقال لهم : إن كل دليلين تثبت صحتهما فوجود المعارضة بينهما نسبية ، وأن الأئمة تمكنوا من الجمع بين ما أوهم التعارض ، وتخريج كل دليل على وجه صحيح ، أو جعلوه من باب التوسعة وتجويز الأمرين معاً ، أو جعلوا المتأخر ناسخاً للمتقدم .

وأما قولهم : إنه اتفق على عدم قبول الآحاد في الأصول فكذا الفروع فيقال لهم: هذا الاتفاق متوهم والسلف لا يفرقون في قبولها بين ما يتعلق بالأصول أو الفروع .

وأما قولهم : لو جاز التعبد به لجاز نقل القرآن بقراءة الآحاد ، فيقال لهم : إن القرآن معجزة الرسول ﷺ فلزم أن يكون مما يقطع بنقله ، ثم إن الصحيح أن القراءة إذا صح سندها إلى النبي ﷺ ووافقت رسم المصحف قبلت .[1]

ويمكن إيراد تلك المسائل التي خالف فيها المبتدعة لاعتقادهم إن أحاديث أدلتها وأحكامها آحاد فلا يؤخذ بها في العقيدة ، فكان اعتقادهم ناقصاً .

---

(١) انظر خبر الآحاد في الحديث النبوي ، للشيخ الجبرين ، ص ١٣٩ .

مسألة الإرجاء :

وذلك حين ظن المبتدعة أن الكفر خصلة واحدة وهو التكذيب ، بناء على تخرصهم وظنّهم أن الإيمان شيء واحد ، وقد جاء القرآن والسنة بتعدد شعب الإيمان ، فكلما ذكر الله تعالى أن الصلاة إيمان وأن الولاء والبراء إيمان .. ، فكذلك جاءت السنة ببيان تلك الأعمال التي من الإيمان بل إن الحديث الصحيح قد دل على أن الإيمان بضع وستون شعبة أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إماطة الأذى عن الطريق.

وأحاديث صحيحة دلت على أن الإيمان يزيد وينقص وليس كما ذكره المتكلمون ، وأن الإيمان قول وعمل ، وأن للإيمان حلاوة ولا تكون إلا مع العمل ، وأن محبة الرسول ﷺ أكثر من الأهل من الإيمان ، وأن من خصال الإيمان أن يحب لأخيه المسلم كما يحب لنفسه ، وأن إكرام الجار والضيف من الإيمان ، وأن الإيمان ينقص بالمعاصي ، وأن حب الأنصار من الإيمان ، وأن الحياء من الإيمان، وأن الأعمال بالنيات ، وأن دعاؤكم إيمانكم ، جميع هذا وغيره قد ذكر في الصحيحين وغيرهما .

قال الإمام البخاري في صحيحه : ((باب أمور الإيمان وقوله تعالى : ﴿ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [1].

ثم أورد حديث شعب الإيمان بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : ((الإيمان بضع وستون شعبة ، والحياء شعبة من شعب الإيمان))[2].

إن تعطيل الأحاديث الواردة في شعب الإيمان والأعمال التي عدها الشرع من الإيمان ، يكون مخالف لما جاء به الشارع وتعطيل للشرع وهذا هو الإرجاء مع اختلاف أصحاب بدعة الإرجاء في درجاته .

---

(١) سورة البقرة آية ١٧٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ن باب أمور الإيمان ، ج١ ، ص ٥١ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب عدد شعب الإيمان ، ج٢ ، ص ٣ .

مسألة : سبّ الله ورسوله ﷺ :

وهذا أمر لا يبحث في علم الكلام لأن الإيمان أمر واحد وهو التصديق ولا عبرة بخلاف ذلك عندهم ، ولا شكّ ((إن سبّ الله أو سبّ رسوله ﷺ كفر ظاهراً وباطناً ، سواء كان السابّ يعتقد أن ذلك محرم ، أو كان مستحلاً له ، أو كان ذاهلاً عن اعتقاده ، هذا مذهب الفقهاء وسائر أهل السنة القائلين بأن الإيمان قول وعمل واعتقاد .

وقد قال الإمام ابن راهويه ، ابو يعقوب اسحق بن إبراهيم الحنظلي ، وهو أحد الأئمة يعدل بالشافعي وأحمد : ((قد أجمع المسلمون أن من سبّ الله أو سبّ رسوله ﷺ أو دفع شيئاً مما أنزل الله أو قتل نبياً من أنبياء الله أنه كافر بذلك ، وإن كان مقراً بما أنزل الله)) [1].

((والحكم في سائر الأنبياء ، كالحكم في سبّ نبينا ، فمن سبّ نبياً مسمى باسمه من الأنبياء المعروفين المذكورين في القرآن ..أو يسبّ نوع الأنبياء على الإطلاق فالحكم في هذا كما تقدم ، لأن الإيمان بهم واجب عموماً ، وواجب الإيمان خصوصاً بمن قصه الله علينا في كتابه ، وسبّهم كفر وردة إن كان مسلم ، و محاربة إن كان من ذمي)) [2].

مسألة الشرك بالله :

وأما الشرك بالله فإن المتكلمين وكذلك الخوارج لا يعيرونه انتباهاً نتيجة قواعدهم وأصولهم التي بنوا عليها عقيدتهم في توحيد الله .

فمذهب الخوارج يهتم بالكبيرة فمن ارتكب كبيرة كفر ، وخُلّد في النار ، والمعتزلة أصّلوا لهم أصولاً خمسة ، فمرتكب الكبيرة في منزله بين منزلتين في الدنيا وفي الآخرة إن لم يتب خلّد في النار .

أما الأشاعرة ومن تبعهم من أهل الإرجاء فالإيمان عندهم هو التصديق أو التصديق والاعتقاد ، والغالبية منهم قالوا لا يضر مع الإيمان معصية ، والآخرون

---

(١) الصارم المسلول على شاتم الرسول ﷺ لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق عصام فارس ومحمد إبراهيم المكتب الإسلامي ، ١٤١٤هـ ، ص ٥١١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٥٦٧ .

قالوا إن الأعمال زيادة في الدرجات ، وعلى هـذا متبـوعيهم يعظمـون الأوليـاء ويتوسلون بهم ويدعونهم مع الله ، ويعظمون المشاهد ، ويحتشدون عنـد المقـابر ، وذلك نتيجة إعراضهم عن التوحيد الصحيح الذي أمر الله به رسله عليهم الـصلاة والسلام .

قال شيخ الإسلام : ((إن حقيقة التوحيد أن نعبد الله وحده ، فلا يدعى إلا هو ولا يخشى إلا هو ، ولا يُتّقى إلا هو ، ولا يتوكل إلا عليه ، ولا يكون الدين إلا له ، لا لأحد من الخلق ، وأن لا نتخذ الملائكة والنبيين أرباباً ، فكيف بالأئمة والـشيوخ والعلماء والملوك وغيرهم !)) (١) .

((أما التوحيد الذي ذكره الله في كتابه ، وأنزل به كتبه ، وبعث به رسله ، واتفق عليه المسلمون من كل ملة ، فهو كما قال الأئمة شهادة أن لا إله إلا الله ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، كما بين ذلك بقوله : ﴿ وَإِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَـٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ (٢).

فأخبر أن الإله إله واحد ، ولا يجوز أن يتخذ إله غيره ، فلا يعبد إلا إياه)) (٣).

((وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده ، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئاً من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به)) (٤)

وقال ابن القيم :

((والشرك فاحذره فشرك ظاهر ذا القسم ليس يقبل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمن أيّا كان مـن حجر ومن إنسـان
يدعوه أو يرجـوه ثم يخـافه ويحبه كمحـبة الرحمـن

والشرك الأكبر لا يغفره الله إلا بالتوبة منه ، وهو أن يتخذ من دون الله نـداً يحبه كما يحب الله ، وهو الشرك الذي تضمن تسوية آلهه المشركين برب العالمين.. مع إقرارهم بأن الله وحده خالق كل شيء وربه ومليكه ، وأن آلهتهم لا تخلـق ولا

---

(١) منهاج السنة ، ج٣ ، ص ٤٩٠ .
(٢) سورة البقرة آية ١٦٣ .
(٣) التسعينية لابن تيمية ص ٢٨٠ .
(٤) مدارج السالكين لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٣٩ .

ترزق ، ولا تحي ولا تميت وإنما كانت هذه التسوية في المحبة والتعظيم والعبادة ، كما هو حال أكثر مشركي العالم)) [1] . ((ومن أنواعه – أي الشرك الأكبر – طلب الحوائج من الموتى ، والاستغاثة بهم ، والتوجه إليهم ، وهذا أصل شرك العالم ، فإن الميت قد انقطع عمله ، وهو لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ، فضلاً عن من استغاث به ، وسأله قضاء حاجته ، أو سأله أن يشفع له إلى الله وهذا من جهله بالشافع والمشفوع له عنده)) [2] .

((ولهذا كان من اتباع هؤلاء من يسجد للشمس والقمر ، والكواكب ويدعوها كما يدعو الله تعالى ويصوم لها ، وينسك لها ، ويتقرب إليها ، ثم يقول إن هذا ليس بشرك ، وإنما الشرك إذا اعتقدت أنها هي المدبرة لي ، فإذا جعلتها سبباً وواسطة لم أكن مشركاً . ومن المعلوم بالاضطرار من دين الإسلام أن هذا شرك)) [3].

بل ((إن من يأتي إلى قبر نبي أو صالح أو من يعتقد فيه أنه قبر نبي او رجل صالح وليس كذلك، ويسأله حاجته مثل أن يسأله أن يزيل مرضه ، أو مرض غيره، أو يقضي دينه ، أو ينتقم له من عدوه ، أو يعافي نفسه وأهله ، وغير ذلك ، مما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ، فهذا شرك صحيح ، يجب أن يستتاب صاحبه.. ، وإن قال أنا أسأله لكونه أقرب إلى الله مني ليشفع لي في هذه الأمور ، لأني أتوسل إلى الله به كما يتوسل إلى السلطان بخواصه وأعوانه ، فهذا من أعمال المشركين والنصارى فإنهم يزعمون أنهم يتخذون أحبارهم ورهبانهم شفعاء ، يستشفعون بهم في مطالبهم ، وكذلك أخبر الله عن المشركين أنهم قالوا : ﴿ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ [4]، [5].

و((سؤال الميت والغائب نبياً كان أو غيره من المحرمات المنكرة باتفاق المسلمين ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا فعله أحد من أئمة المسلمين ، وهذا مما يعلم بالاضطرار من دين المسلمين أن أحداً منهم كان يقول إذا نزلت به تبعة ، أو

---

(١) مدارج السالكين لابن القيم ، ج١ ، ص ٣٣٩ .

(٢) مدارج السالكين ج ١ ، ص ٣٤٦ .

(٣) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية ، ج١ ، ص ٢٢٧ ، ٢٨ .

(٤) سورة الزمر آية ٣

(٥) فتاوى ابن تيمية ، ج ٢٧ ، ص ٧٢ .

عرضت له حاجة لميت يا سيدي فلان ، أنا في حسبك أو اقض حاجتي .. ولا أحد من الصحابة رضي الله عنهم استغاث بالنبي ﷺ بعد موته ، ولا بغيره من الأنبياء ، ولا عند قبورهم ، ولا إذا بعدوا عنها)) [1] .

مسألة الحكم بغير بما أنزل الله :

إن الإعراض عن تشريع الله وحكمه مما ابتليت به الأمة الإسلامية ، فكان ذلك أبرز مظاهر الانحراف ، كيف وقد بين الله في كتابه أن الحكم له سبحانه وأن الخلق والأمر بيده ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ﴾ [2].

وقال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا * أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴾ [3].

قال ابن تيمية : ((ذمّ الله عز وجل المدّعين الإيمان بالكتب كلها ، وهم يتركون التحاكم إلى الكتاب والسنة ، ويتحاكمون إلى بعض الطواغيت المعظمة من دون الله كما يصيب ذلك كثير ممن يدعي الإسلام وينتحله في تحاكمهم إلى مقالات الفلاسفة والصابئة أو غيرهم ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى كتاب الله وسنة رسوله أعرضوا عن ذلك إعراضاً ، و إذا أصابتهم مصيبة في عقولهم ودينهم ودنياهم بالشبهات والشهوات ، أو في نفوسهم وأموالهم عقوبة على نفاقهم ، قالوا : إنما أردنا أن نحسن بتحقيق العلم بالذوق ، ونوفق بين الدلائل الشرعية والقواطع العقلية التي هي في الحقيقة ظنون وشبهات)) [4].

وقال ابن القيم : ((وتحقيقاً لتوحيد العبادة القائم على نفي الإلهية عما سوى

---

(١) الرد على البكري لابن تيمية ، الدار العلمية دلهي ، سنة ١٤٠٥هـ ، الطبعة الثانية ، ص ٢٣١ .

(٢) سورة النساء آية ١٠٥ .

(٣) سورة النساء آية ٥٩ ، ٦٠.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٢ ، ص٣٣٩، ٣٤٠ .

الله تعالى وإثباتها لله تعالى وحده ، فإنه يجب الكفر بالطاغوت .. وقد سمّى الله تعالى الحكم بغير شرعه طاغوتا .. والطاغوت عام ، فكل ما عبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود ، أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت))[1]. ((فإن الرب ، والإله هو الذي له الحكم القدري ، والحكم الشرعي ، والحكم الجزائي ، وهو الذي يؤله ويعبد وحده لا شريك له ، ويطاع طاعة مطلقة فلا يعصى بحيث تكون الطاعات كلها تبعاً لطاعته))[2].

وقال صاحب أضواء البيان رحمه الله : ((الإشراك بالله في حكمه ، والإشراك به في عبادته كلها بمعنى واحد ، لا فرق بينهما البته ، فالذي يتبع نظاماً غير نظام الله ، وتشريعاً غير تشريع الله ، كالذي يعبد الصنم ويسجد للوثن ، ولا فرق بينهما ألبته بوجه من الوجوه ، فهما واحد وكلاهما مشرك بالله)) [3].

وإذا تقرر أن الحكم بغير ما أنزل الله مضاهياً للشرك بالله ، وأنه اعتداء على ولاية الله وحكمه وتدبيره لخلقه ومخلوقاته ، فإن هناك صوراً لهذا الحكم ومنها :

أ – من شرّع غير ما أنزل الله تعالى :

إن الله سبحانه قد قرر أنه الحاكم وأنه يجب إفراده بالخلق والأمر والحكم حيث قال تعالى ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [4]. وإذا كان هو الخالق الرازق المحي المميت ، فهو سبحانه المتفرد بالتشريع والتحليل والتحريم ، فالدين ما شرعه الله ، وليس لأحد أن يشرع شيئاً ما جاء عن الله ، ولا عن رسولهﷺ.

((إن طواغيت البشر قديماً وحديثاً قد نازعوا الله في حق الأمر والنهي والتشريع بغير سلطان من الله تعالى ، فادّعاه الأحبار والرهبان لأنفسهم فأحلوا به الحرام وحرموا به الحلال . واستطالوا به على عباد الله ، وصاروا بذلك أرباباً من

---

(١) أعلام الموقعين لابن القيم ج١ ، ص ٤٩ .

(٢) القول السديد في مقاصد التوحيد ، عبد الرحمن السعدي ، مكتبة المعارف الرياض، ص ١٠٢ .

(٣) أضواء البيان للشيخ الشنقيطي ج ٧، ص ١٦٢ ؛ وانظر الحاكمية في تفسير أضواء البيان ، عبد الرحمن السديس دار طيبة الرياض ١٤١٢ ص ٥٢ – ٥٣ ؛ وانظر نواقض الإيمان القولية والعملية ، عبد العزيز العبد اللطيف ، دار الوطن الطبعة الثانية ، ١٤١٥هـ ص ٢٩٤ – ٣١٠ .

(٤) سورة الأعراف آية ٥٤ .

دون الله ، ثم نازعهم الملوك في هذا الحق فاقتسموا السلطة مع هؤلاء الأحبار والرهبان ، ثم جاء العلمانيون فنزعوا الحق من هؤلاء وهؤلاء ، ونقلوه إلى هيئة تمثل الأمة والشعب ، أطلق عليها اسم البرلمان . أو مجلس النواب ، وغالب الأنظمة التي تحكم بلاد المسلمين – من خلال استقراء دساتيرها – إنما هو انسلاخ من عقيدة إفراد الله تعالى وحده بالتشريع ، حيث جعلت التشريع والسيادة للأمة أو للشعب ، وربما جعلت الحاكم مشاركاً في سلطة التشريع ، وقد يستقل بالتشريع في بعض الأحوال ، وكل ذلك تمرد على حقيقة الإسلام التي توجب الانقياد والقبول لدين الله تعالى)) [1] .

((وهذه المحنة التي نواجهها اليوم ، والتي لا يصلح لدفعها ترقيع جزئي بإلغاء بعض المواد ، والنص على أخرى ، وإنما يصلحه أن نبدأ بتقرير السيادة المطلقة و الحاكمية العليا للشريعة الإسلامية ، والنص على أن كل ما يتعارض معها من القوانين أو اللوائح فهو باطل)) [2].

ب – من أنكر أو جحد الحكم بما أنزل الله أو ما جاء به رسوله ﷺ .

وكلاهما اعتراض على شرع الله تعالى وتكذيب لنصوص الوحيين ، قال تعالى :﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾[3] . قال ابن تيمية : ((والإنسان متى حلل الحرام المجمع عليه ، أو حرم الحلال المجمع عليه أو بدل الشرع المجمع عليه كان كافراً مرتداً بالاتفاق)) [4] ، وقال الشنقيطي : ((من لم يحكم بما أنزل الله معارضة للرسل ، و إبطالاً لأحكام الله ، فظلمه وفسقه وكفره كلها مخرج عن الملة))[5] .

جـ – من فضّل حكم الطاغوت على حكم الله تعالى مطلقاً أو مقيداً .

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله : ((من اعتقد أن غير هدي

---

(١) نظرية السيادة وأثرها على شرعية الأنظمة الوضعية ، صلاح الصاوي ، دار طيبة ، الرياض ١٤١٢هـ، ص ١٩ ، ٢٠ .

(٢) تحكيم الشريعة ودعاوى العلمانية ، صلاح الصاوي ، دار طيبة الرياض ١٤١٢، ص ٨١.

(٣) سورة المائدة ٤٤ .

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ج٣ ، ص ٢٦٧ .

(٥) أضواء البيان للشنقيطي ، ج٢ ، ص ١٠٤ .

النبي ﷺ أكمل من هديه ، أو أن حكم غيره أحسن من حكمه ، كالذي يفضل حكم الطواغيت على حكمه فهو كافر)) [1] وعدّها ضمن نواقض الإسلام .

وقال محمد الألوسي رحمه الله : ((لا شك في كفر من يستحسن القانون ويفضله على الشرع ، ويقول هو أوفق بالحكمة وأصلح للأمة ، ويتميز غيظاً ، ويتقصف غضباً إذا قيل له في أمر : أمر الشارع فيه كذا ، كما شاهدنا ذلك في بعض من خذلهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ..

فلا ينبغي التوقف في تكفير من يستحسن ما هو بين المخالفة للشرع منها – أي القوانين – ويقدمه على الأحكام الشرعية منتقصاً لها)) [2].

ويقول أحمد شاكر رحمه الله : ((والقرآن مملوء بأحكام وقواعد جليلة ، في المسائل المدنية والتجارية ، وأحكام الحرب والسلم وأحكام القتال والغنائم والأسرى ، وبنصوص صريحة في الحدود والقصاص ، فمن زعم أنه دين عباده فقط ، فقد أنكر كل هذا ، وأعظم على الله الفرية ، وظنّ أنه لشخص كائنا من كان ، أو لهيئة كائنة من كانت ، أن تنسخ ما أوجب الله من طاعته والعمل بأحكامه، وما قال هذا مسلم ولا يقوله ، ومن قاله فقد خرج عن الإسلام جملة ، ورفضه كله ، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم)) [3].

د- من ساوى بين حكم الله تعالى وحكم الطاغوت :

إن دعوى المساواة بين الحكم الإلهي والحكم الوضعي ((تَنَقُّصٌ للرب جل جلاله، وغلو وطغيان في أحكام البشر ، وشرك بالله تعالى ، بل إن من طلب أن يطاع مع الله ، فهذا يريد من الناس أن يتخذوا من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله، والله سبحانه أمر أن لا يعبد إلا إياه ، وأن لا يكون الدين إلا له)) [4] . ((ومعلوم أنهم ما سووهم به سبحانه في الخلق والرزق والإماتة والإحياء والملك والقدرة ،

---

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، جمع عبد العزيز الرومي وآخرون ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، الرياض ، ج١ ، ص ٣٨٧ .

(٢) روح المعاني لمحمود الألوسي ، ج٢٨ ، ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدري القوانين في مصر ، أحمد شاكر ، دار الكتب السلفية ، القاهرة ، ص ٩٨ ؛ وانظر عمدة التفسير لابن كثير ، تعليق أحمد شاكر ، ج٢ ، ص ١٧١ ، ١٧٢.

(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج١٤ ، ص ٣٢٩ .

وإنما سووهم به في الحب والتأله والخضوع لهم والتذلل ، وهذا غاية الجهل والظلم، فكيف يسوى من خلق من تراب برب الأرباب ؟ وكيف يسوى العبيد بمالك الرقاب؟ وكيف يسوى الفقير بالذات المحتاج بالذات ، بالغني القادر بالذات)) [١] .

هـ- أن يجوِّز الحكم بما يخالف حكم الله ورسوله : أو يعتقد أن الحكم بما أنزل الله تعالى ، غير واجب ، وأنه مخير فيه ، فهذا كفر مناقض للإيمان ، لتجويزه ما علم بالنصوص الصريحة القطعية تحريمه ، حيث لم يعتقد وجوب إفراد الله تعالى بالحكم)) [٢].

و – ومن لم يحكم بما أنزل الله تعالى إباءً وامتناعاً فهو كافر خارج من الملة ، وإن لم يجحد ويكذب حكم الله تعالى :

((فهذه المحاكم الآن في كثير من أقطار الإسلام ، مفتوحة الأبواب ، والناس إليها أسراباً أثر أسراب ، يحكم حكامها بينهم بما يخالف حكم السنة والكتاب ، من أحكام ذلك القانون ، وتلزمهم به ، وتقرهم عليه ، وتحتمه عليهم ، فأي كفر فوق هذا الكفر ، وأي مناقضة لشهادة أن محمداً رسول الله بعد هذه المناقضة ؟ وما يحكم به كثير من رؤساء العشائر والقبائل من البوادي ونحوهم من حكات آبائهم و أجدادهم وعاداتهم التي يسمونها((سلومهم)) يتوارثون ذلك فيهم ،ويحكمون به ، ويحملون على التحاكم إليه عند النزاع بقاءً على أحكامهم الجاهلية وإعراضاً ورغبة عن حكم الله ورسوله)) [٣] .

إن ما تقدم يبين حكم من حكم بغير ما أنزل الله وإن تعددت الصور ، أما من حكم بغير ما أنزل الله عصياناً وهوى مع اعترافه على أنه آثم مع وجوب الحكم بما أنزل الله ، فهو مرتكب كفراً أصغر لا يخرج عن الملة .

قال ابن تيمية : ((أما من كان ملتزماً لحكم الله ورسوله باطناً وظاهراً ، ولكن عصى واتبع هواه ، فهذا بمنزلة أمثاله من العصاة)) [٤] .

---

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم ، دار الإفتاء ، الرياض ، ج ٢ ، ص ٢٠ .

(٢) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ ، جمع محمد بن قاسم ، مطبعة الحكومة ، مكة ، سنة ١٣٩٩هـ ، ج١٢ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨٨ .

(٣) فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم ، رسالة تحكيم القوانين ، ج١٢ ، ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

(٤) منهاج السنة ، لابن تيمية ، ج٥ ، ص ١٣١ .

ويقول ابن القيم : ((إن اعتقد وجوب الحكم بما أنزل الله في هذه الواقعة ، وعدل عنه عصياناً ، مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة فهذا كفر أصغر)) [١] .

ويقول الشنقيطي : ((من لم يحكم بما أنزل الله معتقداً أنه مرتكب حراماً ، فاعل قبيحاً فكفره وظلمه وفسقه غير مخرج عن الملة)) [٢] .

وعلى مثل هذا يحمل قول ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [٣] حيث قال : ((ليس بالكفر الذي يذهبون إليه .. بل هو كفر لا ينقل عن الملة)) [٤].

أما الرضى بحكم الطاغوت فإنه مخالف لأصل الإيمان بالله تعالى ، وقد سمى الله تعالى الحكم بغير شرعه طاغوتاً ، قال تعالى: ﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ﴾ [٥].

وقال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [٦].

ثم إن الاحتكام إلى منهج الله في كتابه ليس نافلة ولا تطوعاً ، ولا موضع اختيار ، إنما هو الإيمان .. أو .. فلا إيمان .. والأمر إذن جد .. إنه أمر العقيدة من أساسها ثم هو أمر سعادة هذه البشرية – وهي من صنع الله وخلقه – لا تفتح مغاليق فطرتها إلا بمفاتيح من صنع الله ، ولا تعالج أمراضها وعللها إلا بالدواء الذي اختاره الله .. ولكن هذه البشرية لا تريد أن ترد القفل إلى صانعه ، ولا أن تذهب بالمريض إلى مبدعه .. ومن هنا جاءت الشقوة للبشرية الضالة ، البشرية الحائرة المسكينة ، البشرية التي لن تجد الرشد والهدى والراحة والسعادة إلا حين ترد الفطرة البشرية إلى خالقها .

ولقد كانت تنحية الإسلام عن قيادة البشرية حدثاً هائلاً في تاريخها ونكبة

---

(١) مدارج السالكين ، ج١ ، ص ٣٣٦ .

(٢) أضواء البيان ج٢ ، ص ١٠٤ .

(٣) سورة المائدة ، آية ٤٤ .

(٤) المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج٢ ، ص ٣٤٢ .

(٥) سورة البقرة آية ٢٥٦ .

(٦) سورة النساء آية ٦٠ .

قاصمة في حياتها ، لم تعرف لها البشرية نظيراً في كل ما ألم بها من نكبات .

وحين تسلم الإسلام القيادة بعدما فسدت الأرض ، وأسنت الحياة وتعفنت القيادات ، وذاقت البشرية الويلات .. تسلم الإسلام القيادة بهذا القرآن ، وبالتصور الجديد الذي جاء به القرآن والسنة والشريعة المستمدة من الوحي ، فكان ذلك مولداً جديداً للإنسان ، ثم وقعت تلك النكبة القاصمة ، ونحي الإسلام عن القيادة ثانيةً ، لتتولاها الجاهلية مرة أخرى في صورة التفكير المادي الذي تتعاجب به البشرية اليوم ،.. إلا ما شاء الله [1].

مسألة : إن تقدير إيمان تام في القلب بلا ظاهر من قول وعمل كتقدير موجب تام بلا موجبه ، وعلة تامة بلا معلولها وهذا ممتنع :

وبهذا وغيره يتبين قول جهم والصالحي ومن اتبعهما في " الإيمان" كالأشعري في أشهر قوليه ، وأكثر أصحابه ، وطائفة من متأخري أصحاب أبي حنيفة كالماتريدي ونحوه ، حيث جعلوه مجرد تصديق في القلب يتساوى فيه العباد ، وأنه إما أن يعدم وإما أن يوجد لا يتبعض ، وأنه يمكن وجود الإيمان تاماً في القلب مع وجود التكلم بالكفر والسب لله ورسوله طوعاً من غير إكراه ، وأن ما علم من الأقوال الظاهرة أن صاحبه كافر ، فلأن ذلك مستلزم عدم ذلك التصديق الذي في القلب ، وأن الأعمال الصالحة الظاهرة ليست لازمة للإيمان الباطن الذي في القلب ، بل يوجد إيمان القلب تاماً بدونها ، فإن هذا القول فيه خطأ من وجوه :

أحدها : أنهم أخرجوا مافي القلوب من حب الله وخشيته ونحو ذلك أن يكون من نفس الإيمان .

وثانيها : أنهم جعلوا ما علم أن صاحبه كافر مثل إبليس وفرعون واليهود وأبي طالب وغيرهم أنه إنما كان كافراً لأن ذلك مستلزم لعدم تصديقه في الباطن وهذا مكابرة للعقل والحس ، وكذلك جعلوا من يبغض الرسول ويحسده كراهة دينه مستلزماً لعدم العلم بأنه صادق .

وثالثها : أنهم جعلوا ما يوجد من التكلم بالكفر من سب الرسول والتثليث

---

(١) انظر في ظلال القرآن ، سيد قطب ج١ ، ص ١٥ – ١٦ . وقد أُستشهد صاحب الظلال في سبيل الله تعالى لقاء كلمة حق عند سلطان جائر سنة ١٣٨٦هـ .

وغير ذلك يكون مجامعاً لحقيقة الإيمان الذي في القلب ، ويكون صاحبه ذلك مؤمن عندا لله حقيقة ، سعيداً في الدار الآخرة ، وهذا يعلم فساده بالاضطرار من دين الإسلام .

ورابعها : أن العبد يكون مؤمناً ، تام الإيمان ، إيمانه مثل إيمان الأنبياء والصديقين ، ولو لم يعمل خيراً لا صلاة ولا صلة ولا صدق حديث ، ولم يدع كبيرة إلا ركبها .

وخامسها : أنه يلزمهم أن من سجد للصليب والأوثان طوعاً ، وقتل النفس بغير حق ، وقتل كل من رآه يصلي ، وسفك دم كل من يراه يحج البيت ، وفعل ما فعلته القرامطة بالمسلمين ، يكون مع ذلك مؤمناً ولياً لله .

وهذه الأمور كلها إذا تدبرها المؤمن بعقله تبين له أن مذهب السلف هو المذهب الحق ، الذي لا عدول عنه ، وأن من خالفهم لزمه فساد معلوم بصريح المعقول ، وصحيح المنقول كسائر ما يلزم الأقوال المخالفة لأقوال السلف والأئمة)) [1] .

ويلحق بهذه المخالفات الذهاب إلى الكهنة والسحرة وتصديقهم ، وردّ الأحاديث الصحيحة في الحكم عليهم .

مسألة : حكم أهل الفترة ومن لم يكلف في الدنيا من الصبيان والمجانين ، وأطفال المشركين:

إن هذا الإسلام الذي جاء خاتماً للأديان شاملاً لأمور الدنيا والآخرة ، مجيباً على أسئلة المحتارين ، قد أجاب عن استفسار من سأل عن أحوال هؤلاء ، وهذا من علم الغيب الذي لا يدرك إلا بالوحي ، فقد ((روي بأحاديث حسان عن النبي ﷺ أن من لم يكلف في الدنيا من الصبية والمجانين ، ومن مات في الفترة التي لم يبعث فيها رسل ، يمتحنون يوم القيامة ، فمن أطاع دخل الجنة ، ومن عصى دخل النار. وهذا التفصيل هو الصواب ، فإن الله قال في القرآن ﴿ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ [2] . فأقسم سبحانه أنه لا بد أن يملأ جهنم من إبليس وأتباعه ، وأتباعه هم العصاة ، ولا معصية إلا بعد تكليف ، فلو دخلها الصبي والمجنون

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج٧ ، ص ٥٨٢ -٥٨٥ .

(٢) سورة ص آية ٨٥ .

لدخلها من هو من غير أتباعه .

وأيضاً قال سبحانه : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولاً ﴾ [1] إلى غير ذلك من النصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا من جاءه نذير وأتاه رسول ، والطفل والمجنون ليسا كذلك ، كالبهائم ، قال تعالى﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ – إلى قوله – إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴾ [2] فأخبر سبحانه أنه استخرج ذرياتهم وأشهدهم على أنفسهم لئلا يقولوا : أتهلكنا بما فعل المبطلون . فعلم أنه لا يعاقبهم بذنب غيرهم)) [3].

فتكون أدلة المنقول والمعقول متوافقة في ((أنهم يمتحنون في عرصات القيامة، ويرسل إليهم هناك رسولاً وإلى كل من لم تبلغه الدعوة ، فمن أطاع الرسول دخل الجنة ، ومن عصاه دخل النار ، وعلى هذا فيكون بعضهم في الجنة وبعضهم في النار ، وبهذا يأتلف شمل الأدلة كلها . وتتوافق الأحاديث ويكون معلوم الله الذي أحال عليه النبي ﷺ حيث يقول ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) [4]، يظهر حينئذ ويقع الثواب والعقاب عليه حال كونه معلوماً علماً خارجياً لا علماً مجرداً،ويكون النبي ﷺ قد رد جوابهم إلى علم الله فيهم .. وقد جاءت بذلك آثار كثيرة يؤيد بعضها بعضاً، فمنها ما رواه الإمام أحمد في مسنده والبزار أيضاً بإسناد صحيح)) [5] .

فقد روى الإمام أحمد بسنده عن الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال : ((أربعة يوم القيامة يحتجون رجل أصم لا يسمع شيئاً ، ورجل أحمق ، ورجل هرم ، ورجل مات في الفترة ، فأما الأصم فيقول : ربي لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفوني بالبعر ، وأما الهرم فيقول : ربي لقد جاء الإسلام وما أعقل شيئاً ، وأما الذي مات

---

(١) سورة الإسراء آية ١٥ .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٢ ، ١٧٣ .

(٣) مختصر فتاوى ابن تيمية جمع بدر الدين محمد بن علي الحنبلي ، وصححه عبد الحميد سليم ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٤٠٥هـ ، ص ٦٤٣ ، ٦٤٤ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب القدر ، باب حكم موتى أطفال الكفار والمسلمين ج١٦ ، ص ٢١٠. عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ سئل عن أولاد المشركين فقال: ((الله أعلم بما كانوا عاملين)) ؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب ما قيل في أولاد المشركين ج٣ ، ص ٢٤٥.

(٥) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ، حققه محب الدين الخطيب ، المكتبة السلفية ، الطبعة الثالثة ١٤٠٧هـ . القاهرة ص ٣٩٦ – ٣٩٧ .

في الفترة فيقول ربي : ما أتاني لك رسول ، فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه ، فيرسل إليهم إن ادخلوا النار. قال : فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً)) (١) .

وأما الذين قالوا إن الآخرة ليست بدار تكليف ، فينكرون هذه الأحاديث ،فقد أجاب عليهم الشيخ ابن القيم فقال : ((فإن قيل : قد أنكر ابن عبد البر هذه الأحاديث وقال : أهل العلم ينكرون أحاديث هذا الباب ، لأن الآخرة ليست دار عمل ولا ابتلاء، وكيف يكلفون دخول النار وليس ذلك في وسع المخلوقين ، ، والله لا يكلف نفساً إلا وسعها ؟ فالجواب من وجوه :

أحدها : إن أهل العلم لم يتفقوا على إنكارها ، وإن أنكر بعضهم فقد صحح غيره .

الثاني : إن أبا الحسن الأشعري حكى هذا المذهب عن أهل السنة والحديث .

الثالث : إن إسناد حديث الأسود أجود من كثير من الأحاديث التي يحتج بها في الأحكام .

الرابع : إنه قد نص جماعة من الأئمة على وقوع الامتحان في الدار الآخرة وقالوا لا ينقطع التكليف إلا بدخول دار القرار ، ذكره البيهقي عن غير واحد من السلف .

الخامس : إنه قد ثبت أنه سبحانه وتعالى يأمرهم يوم القيامة بالسجود ، ويحول بين المنافقين وبينه ، وهذا تكليف بما ليس في الوسع قطعاً ، وكذلك عبور الصراط الذي هو أدق من الشعرة وأحدُّ من السيف .

السادس : إن هذا استبعاد مجرد لا ترد بمثله الأحاديث ، ومن سلك طريق الحكمة والتعليل فإن هذا التكليف موافقاً للحكمة ، بل الأدلة الصحيحة تدل على أنه

---

(١) مسند الإمام أحمد ، ج٤ ، ص ٢٤ .

؛ مجمع الزوائد للهيثمي ، وقال : رجاله في طريق الأسود بن سريع وأبي هريرة رجال الصحيح وكذلك رجال البزار ، ج٧ ، ص٢١٥ ، ٢١٦ .

الأحاديث المختارة للضياء المقدسي . وقال : إسناده حسن ، ج٤ ، ص ٢٥٥ .

؛ الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للبيهقي ، وقال : إسناده صحيح ، ص ١١١ .

؛ صحيح ابن حبان ، ج١٦ ، ص ٣٥٧ .

؛ زوائد مسند البزار ص ٢٣٢ .

؛ سلسلة الأحاديث الصحيحة للشيخ الألباني ج٣ ، ص ٤١٩ ، ج٥ ص ٦٠٣ .

مقتضى الحكمة .

السابع : إن في أصح هذه الأحاديث ، وهو حديث الأسود بن سريع أنهم يعطون ربهم المواثيق ليطيعنه فيما يأمرهم به ، فيأمرهم أن يدخلوا نار الامتحان فيتركون الدخول معصية لأمره ، لا لعجزهم عنه ، فكيف يقال أنه ليس في الوسع ؟.

وهذا معلوم بالضرورة من الدين من وقوع التكليف بمسألة الملكين في البرزخ ، وأما في عرصة القيامة ، فقال تعالى ﴿ يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ [1] فهذا صريح في أن الله يدعو الخلائق إلى السجود يوم القيامة ، وأن الكفار يحال بينهم وبين السجود إذ ذاك .

والمقصود أن التكليف لا ينقطع إلا بعد دخول الجنة أو النار وقد تقدم أن حديث الأسود بن سريع صحيح ، وفيه التكليف في عرصة القيامة ، فهو مطابق لما ذكرنا من النصوص الصحيحة الصريحة ، فعلم أن الذي تدل عليه الأدلة الصحيحة وتأتلف به النصوص ، ومقتضى الحكمة هذا القول)) [2] .

وقال أبو الحسن الأشعري في عقيدة أصحاب الحديث وأهل السنة :

((وأن الأطفال أمرهم إلى الله إن شاء عذبهم وإن شاء فعل بهم ما أراد ، وأن الله عالم والعباد عاملون)) [3] .

وقال البيهقي في الإرشاد : ((ومن قال بالتوقف في أمر أولاد المسلمين جعل امتحانهم وامتحان أولاد المشركين في الآخرة ، محتجاً بما رواه الأسود بن سريع أن النبي ﷺ قال ((أربعة... الحديث)) ثم قال : وهذا إسناد صحيح [4] .

وحديث الأسود بن سريع وغيره في هذا ، أحاديث آحاد صحاح ، وهي لازمة للإجابة على سؤال جدّ مهم ، وعلى استفسار احتوى الكثير من الحيرة ،فتأتي الإجابة موافقة للنقل والعقل ، وتنحلّ إشكالات عويصة لن تجد لها حلاً في غير عقيدة أهل السنة والجماعة ، عقيدة الطائفة الناجية ، والفرقة المنصورة بإذن الله تعالى .

---

(١) سورة القلم آية ٤٢

(٢) طريق الهجرتين وباب السعادتين لابن القيم ، ص ٣٩٩ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ .

(٣) مقالات الإسلاميين لأبي الحسن الأشعري ص ٢٩٦ .

(٤) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد ، للإمام البيهقي ، تحقيق ، محمد كمال الحوت ، عالم الكتب ، بيروت ، سنة١٤٠٣هـ ، ص ١١١ .

الفصل الرابع

العدول عن تفسير القرآن بالحديث إلى تفسيره بالرأي وتأثيره على مسائل العقيدة

وفيه :

- تمهيد
- التفسير بالمأثور .
- التفسير بالرأي .
- التفسير بالرأي المذموم .

تمهيد

قال الله سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (١) . يمجد الله تعالى نفسه ويباركها ، ويثني على كتابه الفرقان بين الحق والباطل ، وأنه منزل على خير خلقه ومصطفاه من عباده ،لهداية العالمين وبشارتهم وإنذارهم ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۖ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ (٢).

((إن الاستدلال بتلك الآيات والدلائل والاستشهاد بتلك الأمارات والمخايل ، والتنبه لتلك العبارات العبقرية ، وما في تضاعيفها من رموز أسرار القضاء والقدر وكنوز آثار التعاجيب والعبر ، مما لا تطيقه عقول البشر إلا بتوفيق خلاق القوى والقدر ، فإن مدار المراد ليس إلا كلام رب العباد ، إذ هو المظهر لتفاصيل الشعائر الدينية ، والمفسر لمشكلات الآيات التكوينية ..

ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار ، وتولى تيسير عويصات معضلاته سلاطين التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار ..

أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعاني وتشييد المباني وتبيين الحرام وترتيب الأحكام حسبما بلغهم من سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام .

وأما المتأخرون فراموا مع ذلك إظهار مزاياه الرائقة ، وإبداء خباياه الفائقة ليعاين الناس دلائل إعجازه ، ويشاهدوا شواهد فضله وامتيازه عن سائر الكتب الكريمة الربانية ، والزبر العظيمة السبحانية ، فدونوا أسفاراً بارعة جامعة لفنون المحاسن الرائعة)) (٣) .

والتفسير كما عرّفه الزركشي هو : ((علم يُفهم به كتاب الله عز وجل المنزل على نبيه ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه)) (٤).

---

(١) سورة الفرقان آية ١ .

(٢) سورة النور ٣٥ .

(٣) تفسير إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم لأبي السعود ، محمد بن محمد العمادي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ج١ ، ص ٤ .

(٤) البرهان في علوم القرآن ، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي ، تحقيق محمد إبراهيم ١٣٧٦ هـ ، دار إحياء الكتب العربية ، الحلبي ، ج١ ، ص ١٣ .

وعرّفه السيوطي بأنه ((علم نزول الآيات وشؤونها ، وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها)) [١] .

وأُطلق التأويل على التفسير ، وقد ورد في كتاب الله في معاني مختلفة ،منها التفسير وحقيقة ما يؤول إليه الكلام .

والتأويل : ((هو الرجوع ، آل الشيء يؤول أولاً ومآلاً رجع ، وأول الشيء رجّعه ، وأّول الكلام وتأوّله دبّره وقدره ، وتأوّله فسره)) [٢] .

والتأويل عند السلف له معنيان :

((أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه ، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين .

ثانيهما : هو نفس المراد بالكلام ، فإذا قيل طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها .

والتأويل عند المتأخرين الخلف من المتفقهة والمتكلمة والمتصوفة : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به .

وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات ، فمنهم من ذم التأويل ومنعه ، ومنهم من مدحه وأوجبه .

فتأويل هؤلاء المتأخرين عند الأئمة تحريف باطل ، وكذلك نص أحمد في كتاب الرد على الزنادقة والجهمية ، أنهم يتمسكون بمتشابه القرآن ، وبين معناه وتفسيره بما يخالف تأويل الجهمية ، وجرى في ذلك على سنن الأئمة من قبله، فهذا اتفاق من الأئمة على أنهم يعلمون معنى المتشابه ، وأنه لا يسكت عن بيانه وتفسيره بل يبين ويفسر ، فاتفاق الأئمة من غير تحريف له عن مواضعه ، أو إلحاد في أسماء الله وآياته)) [٣]، وحيث إن تفسير القرآن الكريم ضروري لكل من انتسب إلى

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ، المطبعة الأزهرية – الطبعة الثالثة ، الحلبي ١٣٧٠هـ ، ج٢ ، ص ١٧٤ .

(٢) لسان العرب ، ج١٣ ، ص ٣٣ ، ٣٤ .

(٣) مجموع الرسائل الكبرى ، ج٢ ، ص ١٧ ، ١٨ ، ٢٢ .

الإسلام بحق ، أو باطل متمثل في فرق البدع كالشيعة والباطنية والعقليين ، فكان لزاماً بيان مذهب أهل الحق في التفسير الصحيح ، وهو التفسير بالمأثور المعتمد بالرواية والدراية ، وهذا منهج أهل الحق ، وحينئذ يتبين الفرق بينهما وبعدها تتميز الأشياء ، وعلى هذا انقسم التفسير إلى تفسير بالمأثور وتفسير بالرأي:

التفسير بالمأثور :

قال ابن كثير رحمه الله : ((فالواجب على العلماء الكشف عن معاني كلام الله وتفسير ذلك وطلبه من مكانه وتعلم ذلك وتعليمه .. فإن قال قائل فما أحسن طرق التفسير ؟ فالجواب : إن أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن فما أجمل في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر ، فإن أعياك ذلك فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن موضحة له .. ولهذا قال رسول الله ﷺ : ((ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه))[1] يعني السنة ، والسنة أيضا تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن إلا أنها لا تتلى كما يتلى القرآن ، وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا إلى أقوال الصحابة رضوان الله عليهم ، فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرآن والأحوال التي اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح، لاسيما علماءهم وكبراءهم كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين .

والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم ،ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس ابن عم الرسول ﷺ وترجمان القرآن ببركة دعاء الرسول ﷺ حيث قال : ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل))[2] . وسيد القراء أحد كتاب الوحي أبيّ بن كعب رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ : ((إن الله أمرني أن أقرأ عليك القرآن ، فقرأ عليه ..))[3] .

فإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة ، فقد

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٤ ، ص ١٣٠ ، ١٣٢ .
؛ سنن ابن ماجه ، باب تعظيم حديث الرسول ﷺ ، ج١ ، ص ٩ .
؛ سنن الترمذي ، كتاب العلم ، باب ما نهي عنه أن يقال عنده حديث الرسول ﷺ . وقال : حديث حسن ، ج٥ ، ص ٣٨ .

(٢) مسند الإمام أحمد ج١ ، ص ٢٦٦ ، وصححه الألباني في شرح الطحاوية ص ٢١٤ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب المناقب ، باب من فضائل أبي بن كعب رضي الله عنه ، ج٥ ، ص ٧١١ وقال أبو عيسى : هذا حديث حسن .
؛ المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج٢ ، ص ٢٤٢ .

رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر .. إذا أجمعوا على شيء فلا يرتاب في كونه حجة ، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم على بعض حجة ، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك ، فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام)) [١] .

مصادر التفسير بالمأثور :

وهي المصادر التي يعتمد عليها التفسير بالمأثور :

أولها : القرآن : وهو أصح طرق التفسير ، قال ابن تيمية : ((أصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن ، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر وما اختصر في مكان فإنه قد بسط في موضع آخر)) [٢] ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ ﴾ [٣] فسرت بقوله تعالى : ﴿ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [٤] .

ثانيها : السنة النبوية : وهي المصدر الثاني من التشريع والتفسير ، قال ابن تيمية : ((فإن أعياك ذلك – يعني تفسير القرآن بالقرآن – فعليك بالسنة فإنها شارحة للقرآن وموضحة له ، قال الشافعي رحمه الله ((كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو مما فهمه من القرآن)) [٥].

والسنة مبينة لما في القرآن ، كمواقيت الصلاة ، وعدد ركعاتها ومقادير الزكاة ومناسك الحج ومواعيد الصيام ، وتقييد الأحكام في قطع اليد وأن المراد اليمين وأنه إلى مفصل الكف ، وبيان متعلق اللفظ كبيان المغضوب عليهم باليهود والضالين بالنصارى ، وبيان أحكام زائدة على القرآن كتحريم نكاح المرأة على عمتها أو خالتها ، وبيان التأكيد بموافقة ما جاء في القرآن ، فالسنة النبوية أهم مصادر التفسير بالمأثور مع القرآن [٦].

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٦ ، ٧ المقدمة .

(٢) مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية ، تحقيق د . عدنان زرزور ، دار القرآن الكريم ، الكويت سنة ١٣٩١هـ ، ص ٩٣ .

(٣) سورة البقرة آية ٣٧

(٤) سورة الأعراف آية ٢٣

(٥) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ٩٦ .

(٦) انظر ، بحوث في أصول التفسير ومناهجه ، د . فهد عبد الرحمن الرومي ، مكتبة التوبة ، الطبعة الثالثة ، سنة ١٤١٦هـ ، الرياض ٧٣ – ٧٨ .

ثالثها : تفسير الصحابة رضي الله عنهم : كان الصحابة رضي الله عنهم عرباً خلّصاً يفهمون القرآن ، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية فهماً لا تعكره حجة ولا يشوهه شيء من قبل الابتداع وتحكم العقيدة الزائفة ، وإذا خفي عليهم معنى أو دقّ عليهم مرمى رجعوا إلى الرسول ﷺ فبين لهم ذلك [1].

((وحينئذ إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعت في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم)) [2] .

رابعها : تفسير التابعين رحمهم الله : تلقى التابعون تفسيرهم من الصحابة رضي الله عنهم الذين تلقوه عن الرسول ﷺ ((وإذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة ولا وجدته عن الصحابة فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر ، فإنه آية في التفسير .. وغيرهم من التابعين وتابعيهم ومن بعدهم))[3]، غير أنه أثناء تدوين التفسير للقرآن الكريم ((بما يروى عن الصحابة والتابعين فقد تسرب إليه الخلل ، وتطرق إليه الضعف ، لولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك ، فسلمت منه ونستطيع أن نرجع الضعف في رواية التفسير بالمأثور إلى ثلاثة أمور:

أولها : كثرة الوضع في التفسير .

ثانيها : دخول الإسرائيليات فيه .

ثالثها : حذف الأسانيد .

أما تفسير القرآن بالقرآن ، أو بما ثبت من السنة الصحيحة ، فذلك مما لا خلاف في قبوله ، لأنه لا يتطرق إليه الضعف ، ولا يجد الشك إليه سبيلاً)) [4]، وقال ابن كثير : ((هذه الأحاديث الإسرائيليات تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد فإنها على ثلاثة أقسام :

أحدها : ما علمنا صحته وبأيدينا ما يشهد له بالصدق فذلك صحيح .

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٦ ، ٣٤ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ٩٥ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٠٢ ، ١٠٤ .

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

الثاني : ما علمنا كذبه وعندنا ما يخالفه .

الثالث : ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم)) [١].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية : ((هذه الأحاديث الإسرئيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد ، فإنها على ثلاثة أقسام:

أحدها : ما علمنا بصحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق ، فذاك صحيح .

والثاني : ما علمنا كذبه وعندنا ما يخالفه .

الثالث : ما هو مسكوت عنه .. وغالب ذلك أن لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني)) [٢] .

وقال الشيخ أحمد شاكر : ((إن إباحة التحدث عنهم فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه شيء ، وذكر ذلك في تفسير القرآن وجعله قولاً أو رواية في معنى الآيات .. شيء آخر ، لأن في إثبات ذلك بجوار كلام الله ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لقول الله تعالى ، ومفصل لما أجمل فيه، وحاشا لله ولكتابه من ذلك)) [٣] .

((وفي القرآن غنية عن كل ما عداه من الأخبار المتقدمة ، لأنها لا تكاد تخلوا من تبديل وزيادة ونقصان ، وقد وضع فيها أشياء كثيرة ، وليس لهم من حفظ المتقنين الذين ينفون عنها تحريف الغالين ، وانتحال المبطلين ، كما لهذه الأمة من الأئمة والعلماء ، والسادة والأتقياء ، من جهابذة النقاد ، والحفاظ الجياد ، الذين دونوا الحديث ، وحرروه ، وبينوا صحيحه من حسنه و ضعيفه ، من منكره وموضوعه ، ومتروكه ومكذوبه ، وعرفوا الوضّاعين والكذابين ، والمجهولين وغير ذلك من أصناف الرجال)) [٤] .

المؤلفات في التفسير بالمأثور :

وتلك مؤلفات عديدة من أشهرها :

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج١ ، ص ٧ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١٠٠ .

(٣) عمدة التفسير للشيخ أحمد شاكر طبع دار المعارف مصر ١٣٧٦ هـ ، ص ١٥ .

(٤) تفسير ابن كثير ، ج٣ ، ص ٨٩ .

١- **جامع البيان عن تأويل آي القرآن** : لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري ت٣١٠هـ ، قال عنه ابن خزيمة : ((ما أعلم على أديم الأرض أعلم من محمد بن جرير)) [١]. وقال شيخ الإسلام: ((وأما التفاسير التي في أيدي الناس فأصحها تفسيرمحمد بن جرير الطبري ، فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين)) [٢] .

((ويتميز باعتماده على التفسير بالمأثور عن رسول الله ﷺ وأصحابه والتابعين ، والتزامه بالإسناد في الرواية ، وعنايته بتوجيه الأقوال والترجيح ، وذكره لوجوه الإعراب ، ودقته في استنباط الأحكام الشرعية من الآيات ، وكان هذا التفسير مفقوداً إلى وقت قريب فطبع في ٣٠ جزء ، وقام الشيخان محمود وأحمد شاكر بتحقيق جزء كبير منه)) [٣] .

٢- **تفسير معالم التنزيل للبغوي** : وهو الحسين بن مسعود الفقيه المحدث ت سنة ٥١٠هـ ، وقال عنه ابن تيمية: ((تفسيره مختصر .. لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة [٤]، ويتميز بتفسيره القران بالقرآن والسنة ثم بأقوال الصحابة والتابعين والأئمة وإيراد أسباب النزول ، وذكر الأحكام الفقهية في الآيات القرآنية)) [٥] .

٣- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز لابن عطية ، أبو محمد عبد الحق بن غالب الأندلسي ت سنة ٥٤١هـ ، قال عنه ابن تيمية** : ((وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشري .. وكثيراً ما ينقل من تفسير ابن جرير وهو من أجل التفاسير المأثورة وأعظمها قدراً – ثم يحكيه عن المحققين ويعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين هم أقرب إلى السنة من المعتزلة)) [٦] .

و((ابن عطية يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة ويورد من التفسير

---

(١) طبقات المفسرين ، محمد بن علي الداودي ، تحقيق على محمد محمد ، مكتبة وهبة ، مصر ، ج٢ ، ص ١١١.

(٢) مجموع فتاوى ابن تيمية ، ج١٣ ، ص ٣٨٥ .

(٣) مذاهب التفسير الإسلامي ، جولد تسيهر ، ترجمة عبد الحليم النجار ، دار اقرأ ، بيروت الطبعة الثانية ، سنة ١٤٠٣هـ ، ص ١٠٩ ؛ انظر التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٠٧ .

(٤) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٧٦ .

(٥) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٣٦ ، ٢٣٧ .

(٦) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ٩٠ .

بالمأثور ، وينقل عن ابن جرير ، ويستشهد بالشعر العربي ، ويحتكم إلى اللغة العربية ويهتم بالصناعة النحوية)) [١] .

٤- تفسير القرآن العظيم : لأبي الفداء إسماعيل بن عمرو بن كثير ت ٧٧٤هـ:

يعد تفسير ابن كثير من أشهر مادوّن في التفسير بالمأثور بعد الطبري ، ويذكر الآية ثم يفسرها بعبارة سهلة ، موجزة ، ويجمع الايات المناسبة لها ، ثم يورد الآيات المرفوعة التي لها صلة بالآية ويبين ما يحتج به وما لا يحتج به ، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين وعلماء السلف ، ويرجح بين الأقوال ، ويضعف بعض الروايات ، ويصحح أخر ، ويعدل بعض الرواة ، ويجرح آخرين ، و ينبه إلى ما في التفسير بالمأثور من منكرات الإسرائيليات إجمالاً أحياناً وبالتفصيل حيناً آخر)) [٢].

٥- الدر المنثور للسيوطي : لجلال الدين عبد الرحمن ابن أبي بكر السيوطي ت٩١١هـ :

ألف كتابه ترجمان القرآن وهو التفسير المسند عن رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم تم في مجلدات قال : ((ثم رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ورغبتهم في الاقتصار على متون الأحاديث دون إسناد فلخصت منه هذا المختصر وأسميته بالدر المنثور في التفسير بالمأثور)) [٣]،((قام فيه بسرد الروايات عن السلف دون تعقيب بتعديل أو تجريح أو تضعيف أو تصحيح ، ولم يتحر الصحة فيما جمع ، وخلط الصحيح بالضعيف)) [٤].

التفسير بالرأي :

والمراد بالرأي : الاجتهاد ، وعليه فالتفسير بالرأي عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد ، وقد يبذل المفسر جهده وتتوافر فيه شروط المفسر فيحمد تفسيره ، وقد يكون صاحب هوى فيذم تفسيره [٥].

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٤٠ .
(٢) نفس المرجع ، ج١ ، ص ٢٤٥ .
(٣) الدر المنثور في التفسير بالمأثور لجلال الدين السيوطي ، مؤسسة الرسالة ،بيروت ، ج١ ، ص ٢ .
(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٥٤ ؛ وانظر بحوث في أصول التفسير ومناهجه د . فهد الرومي، ص ١٤٢ – ١٥٢ .
(٥) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٥٥ .

وهنا يتبين أن التفسير بالرأي ينقسم إلى قسمين :

أولاً : التفسير بالرأي المحمود : ((وهو التفسير المستمد من القرآن والسنة ، وكان صاحبه عالماً باللغة العربية عالماً بقواعد الشريعة وأصولها ، ولعل هذا النوع هو الذي دعا به الرسول ﷺ لابن عباس بقوله : ((اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل)) وفيه وقع اختلاف الصحابة في معنى الآية فأخذ كل منهم برأيه على مقتضى نظره في المقتضى)) [1]. وقد أجازه العلماء رحمهم الله واستدلوا بحديث ابن عباس ، قال ابن تيمية ((فأما من تكلم – يعني بالتفسير – بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه)) [2]. ومثاله من مؤلفات التفسير :

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب السليم لأبي السعود ت ٩٨٢هـ.

٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن عبدالرحمن الثعالبي ت ٨٧٦هـ .

٣- تفسير الجلالين لجلال الدين السيوطي وجلال الدين المحلي ت ٩١١هـ، ٨٦٤هـ .

٤- محاسن التأويل جمال الدين القاسمي ت ١٣٣٢هـ .

٥- تفسير فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير محمد ابن عبد الله الشوكاني ت ١٢٥٠هـ .

وذكر الشيخ :الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه ((التفسير والمفسرون)) أن فتح القدير للشيخ الشوكاني رحمهما الله هو من تفسير الزيدية الشيعة ، ومن المعلوم إن هذا القول مخالف لحال هذا الكتاب لأمور هي :

أ – إن الإمام الشوكاني تفقه على مذهب الزيدية ثم خلع ربقة التقليد بعد معرفة الحق ، وألف رسالة سمّاها ((القول المفيد في أدلة الاجتهاد والتقليد)) [3] .

ب –قال الشيخ الذهبي : وعقيدة الشوكاني عقيدة السلف . من حمل

---

(١) البرهان في علوم القرآن للزركشي ، ج٢ ، ص ١٦١ وانظر البحث ص ٨٤٩ .

(٢) مقدمة في أصول التفسير ، ص ١١٤ .

(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ج١ ، ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٨ ، ٢٩٩ .

صفات الله الواردة في القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف . وألف رسالة في ذلك سمّاها ((التحف بمذهب السلف)) .

ج – إن تفسير ((فتح القدير)) جمع بين الرواية والدراية فقد حرص ((على إيراد ما أثبت عن رسول الله ﷺ من التفسير ، أو الصحابة أو التابعين ، أو الأئمة المعتمدين – ثم قال – وقد أذكر ما في إسناده من ضعف)) [1] وهذا منهج أهل السنة في التفسير .

د – قال الشيخ الذهبي : وقد رجعت إلى هذا التفسير فوجدته يذكر الآيات ثم يفسرها ثم يذكر الروايات التفسيرية الواردة عن السلف.

وعلى الجملة .. فالكتاب لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية .

هـ – إن كتاب فتح القدير في التفسير للإمام الشوكاني يُدرّس ضمن مناهج المعاهد والجامعات ، عند أهل السنة ، لما تضمنه من سلامة المنهج في العقيدة . ويُعفى للذهبي رحمه الله تصنيفه لفتح القدير أنه من كتب الزيدية ؛ ذلك أن الشوكاني ولد وعاش زيدياً في أول الطلب لكنه خلع زيديته وعاد إلى منهج الحق . فغفر الله للشيخين فكلاهما طالبا حق.

٦– تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان : لعبد الرحمن بن ناصر السعدي ١٣٠٧ هـ.

٧ – في ظلال القرآن لسيد قطب ت شهيداً ١٣٨٦هـ .

٨– أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن لمحمد أمين الشنقيطي ت ١٣٩٣هـ ، رحمهم الله جميعاً[2] .

قال ابن تيمية : ((ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير ، محمد بن علي الشوكاني ، دار المعرفة ، بيروت ، توزيع مكتبة الباز ، مكة المكرمة – المقدمة ج١ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ، ص ٣٥٢ – ٣٣٣ .

؛ وانظر بحوث في أصول التفسير للرومي ، ص ١٥٦ – ١٥٦ .

منافاة ، لأنهم تكلموا بما علموه وسكتوا عما جهلوه ، وهذا هو الواجب على كل أحد)) [١] .

وقال النووي : ((وأما تفسيره للعلماء فجائز حسن ، والإجماع منعقد عليه))[٢] وهكذا أجاز العلماء تفسير القرآن بالرأي المحمود والمنضبط بالضوابط التي ذكرها العلماء .

ثانياً : التفسير بالرأي المذموم :

ظل أصحاب الصبغة العقلية الدينية في التفسير على تمسكهم ((بقانون اللغة ولم يتخطوا حدود الشريعة ، بل ظلوا متحفظين بصبغتهم العقلية والدينية ، فلم يتجاوزوا دائرة الرأي المحمود إلى دائرة الرأي المذموم الذي لا يتفق مع قواعد الشرع ، فظل الأمر على ذلك إلى أن قامت الفرق المختلفة ، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة ، ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة ، وكان القرآن هو هدفهم الذي يقصدون إليه جميعاً ، كل يبحث في القرآن يجد فيه ما يقوي رأيه ويؤيد مذهبه)) [٣].

وهذا هو التفسير بمجرد الرأي والهوى ((فهو تفسير لا يستند إلى نصوص الشريعة من القرآن والسنة ، وأكثر الذين فسروا القرآن بمجرد الرأي هم أهل البدع والمذاهب الباطلة ، فقد اعتقدوا معتقدات باطلة ليس لها سند ولا دليل ، ثم أرادوا أن يستدلوا لها من القرآن والسنة فلم تطاوعهم النصوص على ما ذهبوا إليه ففسروها بآرائهم وحملوها ما لا تحتمل)) [٤]. وهذا هو الرأي المذموم المحرم كما قال ابن تيمية : ((إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ولا من الأئمة المفسرين ولا في رأيهم ولا في تفسيرهم)) [٥]. ((فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام)) [٦] وقد استدل علماء أهل

---

(١) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ١١٤ ، ١١٥ .

(٢) التبيان في آداب حملة القرآن ، النووي ، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط ، دار البيان ، دمشق ١٤٠٥هـ ، ص ١٣٢ .

(٣) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ، ص ٣٦٣ .

(٤) بحوث في أصول التفسير ، د . الرومي ، ص ٨٠ .

(٥) مجموع فتاوى ، ابن تيمية ج١٣ ، ص ٣٥٨ .

(٦) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ١٠٥ .

السنة والجماعة على تحريم التفسير بمجرد الرأي بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة وسلف علماء الأمة: فقد ورد في كتاب الله قوله : ﴿ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولاً ﴾ [1]والتفسير بمجرد الرأي قول على الله بغير علم .

وقال تعالى : ﴿ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [2]وقوله : ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [3] ، فأضاف البيان إلى رسول الله ﷺ وإعراضهم عن هذا المنهج هو سرّ تخبطهم ، بل إن السنة هي الضابط لتوجيه تفسير القرآن .

وقد جاءت السنة بالتحذير من القول في كتاب الله بغير علم ، وإنما بمجرد الرأي ، فعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال : ((من قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار)) [4]، قال أبو عيسى حديث حسن صحيح. وعن جندب بن عبد لله قال : قال رسول الله ﷺ : ((من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ))[5]. قال أبو عيسى : هكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في هذا في أن يفسر القرآن بغير علم . وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة وغيرهما من أهل العلم أنهم فسروا القرآن ، فليس الظن بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسروه بغير علم ، أو من قبيل أنفسهم .

وأما الصحابة رضي الله عنهم فقد كان حرصهم على كتاب الله شديداً ، قال ابن تيمية : ((روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ أنهم شددوا في أن يفسر القرآن بغير علم)) [6] .

فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : ((أي أرض تقلني وأي سماء تظلني إذا قلت في كتاب الله ما لم أعلم)) [7] . وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه على

---

(١) سورة الإسراء . آية ٣٦ .
(٢) سورة البقرة ١٦٩ .
(٣) سورة النحل ٤٤ .
(٤) مسند الإمام أحمد ج١ ، ص ٢٣٣ ،
؛ سنن الترمذي كتاب تفسير القرآن ، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ج٥، ص ١٩٩ .
(٥) سنن الترمذي تفسير القرآن ، باب ما جاء في الذي يفسر القرآن برأيه ج٥ ، ص ٢٠٠ .
؛ سنن أبي داود كتاب العلم باب الكلام في كتاب الله بغير علم ج٤ ، ص ٦٣ .
(٦) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، ص ١٠٧ .
(٧) نفس المصدر ص ١٠٨ .

المنبر ﴿ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴾ فقال هذه الفاكهة قد عرفناها فما الأب ؟ ثم رجع إلى نفسه فقال إن هذا لهو التكلف يا عمر))[1] . وقد أكد هذا علماء الأمة رحمهم الله من أهل السنة والجماعة السلف ، فقال مسروق رحمه الله : ((اتقوا التفسير فإنما هو الرواية عن الله ..

وروي عن عبد الله بن مسلم بن يسار عن أبيه قال ((إذا حدثت عن الله فقف حتى تنظر ما قبله وما بعده ..)).

وقال إبراهيم بن يزيد النخعي ((كان أصحابنا يتقون التفسير ويهابونه))[2] .

قال ابن جرير الطبري رحمه الله : ((وهذه الأخبار شاهدة لنا على صحة ما قلنا : من أن ما كان من تأويل آي القرآن الذي لا يدرك علمه بنص بيان رسول ﷺ أو بنصبه الدلالة عليه فغير جائز لأحد القيل فيه برأيه ، بل القائل في ذلك برأيه – وإن أصاب الحق – فمخطئ فيما كان من فعله بقيله فيه برأيه))[3] .

وقال النووي رحمه الله : ((ويحرم تفسيره بغير علم والكلام في معانيه لمن ليس من أهلها ، والأحاديث في ذلك كثيرة ، والإجماع منعقد عليه))[4]. وقال ابن تيمية : ((فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها من أئمة السلف محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به))[5]. و((إذا علم هذا فينبغي الحذر كل الحذر من الجرأة على القرآن وتفسيره بمجرد الرأي وكم يحز في النفس حين نرى كثيراً من الناس يجرأون على تفسير كلام الله ولا يحسبون لذلك حساباً فلا تتلكأ ألسنتهم ولا ترجف قلوبهم وكأنهم قد أحاطوا بالقرآن علماً ، وأصبح من مداركهم ، وكم رجل منهم فسر آية لو عرضت على أبي بكر رضي الله عنه خير هذا الأمة بعد نبيها ﷺ ، وأكثر الناس ملازمة للرسول ﷺ وعلماً بالقرآن ، لو عرضت عليه لقال : ((أي أرض تقلني ، وأي سماء تظلني إذا قلت في القرآن برأيي أو بما لا

---

(١) تفسير ابن كثير ، ج٤ ، ص٥٠١ ، وقال هو بإسناد صحيح .

(٢) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١١٣ .
؛ وانظر بحوث في أصول التفسير ، د . الرومي ، ص ٨٠ – ٨٤ .

(٣) جامع البيان عن تأويل آي القرآن لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري . تحقيق محمود وأحمد شاكر ، دار المعارف بمصر ، ج١ ، ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) التبيان في آداب حملة القرآن للنووي ، ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٥) مقدمة في أصول التفسير ، لابن تيمية ، ص ١١٤ .

أعلم ، وإن أحدهم ليفسر الآية ولو سمعه عمر رضي الله عنه لقرعة بدرته والله المستعان)) [1].

المؤلفات في التفسير بالرأي المذموم :

تعددت اتجاهات المفسرين للقرآن في العصور المتأخرة ، وذلك لتباين فرقهم و اختلاف مشاربهم ، وبذلك أدلى كلّ بدلوه ومدّ أو قصّر رشاءه ، فمستقل ومستكثر.

أولاً : أصحاب التأويل من المثبتين للصفات السبع والقول بالإرجاء .

وهم أصحاب مدرسة الكلام الذين يثبتون سبعاً من الصفات لله سبحانه وتعالى ويؤولون ما ورد في القرآن الكريم ، ولا يعتمدون الحديث في التفسير ، فهم ينهجون في تفسير هم للقرآن منهجاً كلامياً لغوياً سمي التفسير بالرأي المذموم منها :

١- مفاتيح الغيب : فخر الدين الرازي ت ٦٠٦هـ ، ويعد تفسيره أوسع التفاسير في علم الكلام ، وسلك في تفسيره مسلك الحكماء والفلاسفة وعلماء الكلام ، واستطرد في العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية والمسائل الطبية ، وملأ تفسيره بهذه العلوم حتى قيل عنه : فيه كل شيء إلا التفسير . [2]

وقال عنه ابن حجر : ((كان يقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك ، حتى قال عنه بعض العلماء : يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة)) [3] .

وقد عاد عن منهجه الكلامي في آخر عمره وأثبت ما كان يعيشه من حيرة كغيره من الذين عادوا عن تلك المناهج فرزقهم الله ثباتاً وإيماناً سنياً .

قال شارح الطحاوية : ((كل من عدل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم ، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة ، وعند التعارض يتأول النص ويرده إلى الرأي ، فيؤول إلى الحيرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد الحفيد

---

(١) خصائص القرآن الكريم . د . فهد الرومي ، دار طيبة ، الرياض ، الطبعة السادسة ، سنة ١٤٤١هـ ، ص ١٥٥ ، ١٥٦ ؛ وانظر مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ١٠٨.

(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج٢ ، ص ٢٩٠ .

(٣) لسان الميزان لأحمد بن حجر ، طبع في الهند ، سنة ١٣٣١هـ ، ج٤ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .
؛ انظر التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ، في كتابه تهافت التهافت : ومن الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتد به ؟ وكذلك أبو عبد الله محمد بن عمر الرازي ، قال في كتابه الذي صنفه " أقسام اللذات " :

نهاية إقدام العقول عقال وغاية سعي العالمين ضلال .

لقد تأملت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، و رأيت أقرب الطرق طريقة القرآن ..ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي)) (١).

٢- أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، عبد الله بن عمر البيضاوي ت ٦٨٥هـ وقد اختصر البيضاوي تفسيره من الكشاف للزمخشري ، ولكنه ترك ما فيه من اعتزالاته ، وإن كان أحيانا يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف فينكر مسّ الشيطان للإنس الذي أثبته الله في كتابه فيقول عندما فسر قوله تعالى ﴿ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِي يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مِنَ ٱلۡمَسِّ ﴾ (٢) وجدناه يقول : ((إلا قياماً كقيام المصروع وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع،وهذا أيضاً من زعمهم أن الجني يمسّ الرجل فيختلط عقله))(٣).

كما أننا نجد البيضاوي قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف ، من ذكره في نهاية كل سورة حديثاً في فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله ، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث ، وقلنا إنها أحاديث موضوعة باتفاق أهل الحديث)) (٤) .

٣ - لباب التأويل في معاني التنزيل للخازن أبو الحسن علي بن محمد ت ٧٤١هـ .

٤ - مدارك التنزيل وحقائق التأويل ، أبي البركات عبد الله بن أحمد النسفي ت ٧٠١هـ .

٥- الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية تعليق الشيخ الألباني ، ص ٢٠٨ .

(٢) سورة البقرة ٢٧٥ .

(٣) أنوار التنزيل وأسرار التأويل للبيضاوي ، دار الكتب العربية ، ١٣٣٠هـ ، ط١ ، ص ٢٦٧ .

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٩٧ .

ت ٦٧١هـ ، والقرطبي كغيره من مفسري مدرسة علم الكلام الصفاتية يؤول صفات الله وإن كان يذكر كلام العلماء ولكنه يذهب إلى القول بالتأويل مثل قوله في صفة الرحمة لله قوله : فالرحمن والرحيم اسمان مشتقان من الرحمة ترجع إلى إرادة فيض الخير عموماً أو خصوصاً ، وصفتي الغضب والرضا هما إرادة العقوبة و إرادة الثواب ، وصفة العين بأنها عبارة عن الإدراك والإحاطة)) [١] .

٦- صفوة التفاسير : محمد علي الصابوني ، وهو كغيره من المفسرين بالرأي يحتجون بأقوال الزمخشري المعتزلي المنكر لصفات الله تعالى .

فيقول الصابوني عند تفسيره قوله تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا ﴾ [٢]حقاً لقد سمع الله قول المرأة التي تراجعك وتحاورك في شأن زوجها ، قال الزمخشري ((ومعنى سماعه لقولها إجابة دعائها ، لا مجرد علمه تعالى بذلك ، وهو كقول المصلي : سمع الله لمن حمده)) [٣]، وهو كغيره من المفسرين بالرأي يؤول صفات الله تعالى الثابتة له بالكتاب والسنة الصحيحة فيقول في تفسير قوله تعالى ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَـٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴾ [٤] أي ويبقى ذات الله الواحد الأحد ، ذو العظمة والكبرياء والإنعام والإكرام)) [٥]، ويقول : ((لقد تضمنت السورة وجوهاً كثيرة من البيان والبديع نوجزها فيما يلي ..

المجاز المرسل ﴿ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾ أي ذاته المقدسة وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل)) [٦] .

ثانياً : أصحاب مدرسة الاعتزال :

وهؤلاء ينفون صفات الله تعالى ، لأن إثباتها كما يزعمون يقتضي تعدد القدماء ، وسموا ذلك توحيداً وأصلاً من أصولهم الخمسة لفهم القرآن وأركان الدين ،

---

(١) المفسرون بين التأويل والإثبات في آيات الصفات ، محمد عبد الرحمن المغراوي ، القسم الرابع – الرد على المفسرين الخلفيين ، المطبعة والوراقة الوطنية ، مراكش ، ١٤١١هـ ، ص ٧ ، ٩ ، ٣٩ ؛ وانظر الجامع لأحكم القرآن للقرطبي ، دار إحياء التراث العربي بيروت ، ١٣٨٥هـ ، ج١ ، ص ١٥٠ ، ج٧ ، ص ٢٢٧ ، ج٩ ، ص٣٠ .

(٢) سورة المجادلة آية ١ .

(٣) صفوة التفاسير ، محمد علي الصابوني ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، سنة ١٤٠١هـ ، ج١٨ ، ص ٧.

(٤) سورة الرحمن آي ٢٧ .

(٥) صفوة التفاسير للصابوني ، ج١٧ ، ص ٥١ .

(٦) صفوة التفاسير للصابوني ، ج١٧ ، ص ٥٨ .

وابتعدوا عن منهج السنة في فهم كتاب رب العالمين ((فأنكروا القدر وقالوا باستحالة رؤية الله يوم القيامة وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات . وأن القرآن مخلوق لله تعالى ، وأن الله لا يغفر لمرتكب الكبيرة ما لم يتب وأنه في منزلة بين المنزلتين ومخلد في النار لأنه لا يجوز أن يعفو الله عنه إذا مات ولم يتب ، فأقام المعتزلة تفسيرهم على ضوء عقيدتهم الإعتزالية ، فحكموا العقل في فهم كتاب الله ، ثم إن هذا السلطان العقلي المطلق قد جرّ المعتزلة إلى إنكار ما صح من الأحاديث التي تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية ، فكان له الأثر الأكبر في تفسير المعتزلة للقرآن)) [١] .

قال أبو الحسن الأشعري رحمه الله ذاماً ما ذهب إليه هؤلاء في تفسيرهم للقرآن بعقولهم ((أما بعد : فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم ، وفسّروه على أهوائهم تفسيراً لم ينزل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهانا، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين ، ولا عن السلف المتقدمين، من الصحابة والتابعين ، افتراءاً على الله ، قد ضلّوا وما كانوا مهتدين)) [٢].

وقال ابن تيمية رحمه الله : ((وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين :

تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلاً على قولهم ، أو جواباً على المعارض لهم .

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدسّ البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله .

وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يُعلم أو يُعتقد فسادها ، ولا يهتدي لذلك . [٣]

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .

(٢) تبيين كذب المفتري فيما نسب لأبي الحسن الأشعري لأبن عساكر، دار الفكر ، الطبعة الثانية ، دمشق ١٣٩٩هـ ، ص ١٣٨ .

(٣) مقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ، مطبعة الترقي ، دمشق ١٣٥٩ هـ ، ص ٢٢ .

وقال ابن القيم رحمه الله : ((إنه زبالة الأذهان ، ونخالة الأفكار ، وعفار الآراء ووساوس الصدور، فملؤوا به الأوراق سواداً ، والقلوب شكوكاً ، والعالم فساداً وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم إنما نشأ من تقديم الرأي على الوحي، والهوى على العقل)). (١)

وقد التزم المعتزلة جميعاً بمنهجهم في تفسير القرآن الكريم على خلاف بينهم، ولكن لا نجد معتزلياً تعرض للتفسير إلا وظهر منهج المعتزلة وأسسهم في تفسيره ، ولا يحيد عنها إلى غيره أبداً ...

ومنهجهم عقلي بحت لا يعتمد على القرآن نفسه في إثبات مبادئه ، وإنما يعتمدون على العقل في إثبات وجود الله ، وصدق الرسول ﷺ ، ومبادئ الإسلام ، فاعتمادهم على الأدلة المنطقية أكثر من اعتمادهم على النصوص القرآنية في الحجاج وإثبات المبادئ ..

والكشاف هو تفسير المعتزلة الأول ، وعليه اعتمادهم وصاحبه من متأخري المعتزلة .. وأثر الاعتزال واضح في كل ما يكتب وكل ما يفسر ، فإن النظرة العقلية البحتة لتفسيره النص ديدنه ، ومنهج الاعتزال سبيله ، فيعلل ويؤول ما وسعه، ولا يعجزه التأويل لأنه من أرباب البيان)) (٢) .

((وأحياناً يحاول المعتزلة تحويل النص القرآني من أجل عقيدتهم إلى مالا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله ﷺ ، فيقرؤون : ﴿ وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا ﴾ بنصب لفظ الجلالة)) (٣).

أهم كتب التفسير عند المعتزلة :

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل ، للزمخشري. من أهم كتب التفسير الاعتزالي ، لصاحبه محمود بن عمر الخوارزمي المعتزلي ت ٥٣٨ هـ .

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن القيم ، مطبعة الكردي ، دمشق ، ١٣٢٥هـ ، ج١ ، ص ٨ .

(٢) أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي ، د . مساعد مسلم ، مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة ١٤٠٥هـ ،، ص ٣٣٢ ، ٣٣٦ .

(٣) الكشاف للزمخشري ، مطبعة محمد مصطفى سنة ١٣٠٨ هـ ، ج١ ، ص ٣٩٧ .
؛ وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص٣٧٧ .

((اعتنى فيه ببيان وجوه الإعجاز القرآني وإظهار جمال النظم وبلاغته وتميز بذلك ، والزمخشري لا يستشهد بالأحاديث إلا قليلاً ، ويورد أحياناً الأحاديث الموضوعة ، خاصة في فضائل السور .

وملأ تفسيره بعقائد المعتزلة والاستدلال لها وتأويل الآيات وفقهها ، ويدسّ ذلك دسّاً لا يدركه إلا حاذق)) . (١)

حمل على أهل السنة وبالغ في السخرية والاستهزاء بهم واحتقارهم ورماهم بالأوصاف المقذعة ، وسماهم مجبرة ، وحشوية ، ومشبهة ، وقدرية ، ويحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التي وردت في حق الكفار إلى ناحية مخالفيه في العقيدة من أهل السنة . (٢)

قال الزمخشري عن تفسيره :

إن التفاسير في الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمري مثل كشافي
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافي (٣)

وقد رُدّ عليه فقيل :

ولكنه فيه مجال لنا قد ... وزلات سوء ، قد أخذت المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا ... ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقا
ويشتم أعلام الأئمة ضلة ... ولاسيما أن أولجوه المضايقا
ويخطئ في فهم القرآن لأنه ... يجوّز إعراباً أبى أن يطابقا (٤)

قال عنه ابن خلدون : ((كتاب الكشاف للزمخشري وهو من أهل الإعتزال في العقائد ، فيأتي بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة ، حيث تعرض له في القرآن من طرق البلاغة فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه)) (٥) .

---

(١) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ، ج٢ ، ص ١٩٠ .
(٢) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج١ ، ص ٤٦٥ .
(٣) كشف الظنون ، ملا كاتب جلبي ، دار الطباعة المصرية ، سنة ١٣٧٤ هـ ، ج٢ ، ص ١٤٧٦ .
(٤) البحر المحيط لأبي حيان التوحيدي ، مطبعة السعادة ١٣٢٨هـ ، ج٧ ، ص ٨٥ .
؛ وانظر : لمحات في علوم القرآن واتجاهات التفسير ، محمد الصباغ ، المكتب الإسلامي ، بيروت ، ١٣٩٣هـ ، ص ١٦٨ .
(٥) مقدمة ابن خلدون ، ص ٤١٩ .

قال السبكي : ((وهو رجل مبتدع مجاهر ببدعته ، يضع من قدر النبوة كثيراً ، ويسيء أدبه على أهل السنة والجماعة ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبي ﷺ)) [١] .

وقال ابن القيم بعد ما ذكر تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [٢] .

قال : ((فهذا منه شنشنة نعرفها من قدري نافٍ للمشيئة العامة ، مبعد للنجعة في جعل كلام الله معتزلياً قدرياً)) . [٣]

ثالثاً : مدارس الشيعة و الصوفية و الخوارج و الباطنية و الفلاسفة :

إن كل من انتسب إلى الإسلام لا يخلو من تعظيم للقرآن وتفسيره بطريق ما، وذلك حسب المعتقد الذي ينتسب إليه ، ولا شك أن فهم كتاب الله لا يكون إلا كما تبين سابقاً ، بالقرآن نفسه والسنة الصحيحة وأقوال الصحابة والتابعين ، فمن ضل عن هذا كثر خطؤه ، وزاد انحرافه .

وإن الشيعة لهم السبق في هذا المضمار ، مثلما كانوا وكراً لتفريخ فرق الباطل عبر التاريخ الإسلامي ، كالنصيرية والإسماعيلية الباطنية والبهائية وغيرها...

فقالوا في تفسيرهم : ((إن لكل آية من كلام الله ظهراً وبطناً وتفسيراً وتأويلاً، بل لكل واحدة منها سبعة بطون وسبعون بطناً دلت عليها أحاديث متكاثرة..

وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن في دعوة الإمامة والولاية ، كما جعل جلّ ظهره في دعوة التوحيد والنبوة والرسالة)) [٤] .

وهؤلاء الشيعة يسخّرون تفسير القرآن لإثبات ما ذهبوا إليه في العقيدة كعصمة الأئمة في قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [٥] .

---

(١) النماذج الخيرية ، منير الدمشقي ، المطبعة المنيرية سنة ١٣٤٩هـ ، ص ٣١٠ .

(٢) سورة الأعراف ١٧٦ .

(٣) أعلام الموقعين عن رب العالمين ، لابن القيم ج١ ، ص ٢٠٣ .

(٤) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ، عبد اللطيف الكازراني ، طبع العجم ، ١٣٠٣هـ ، ص ٢ ، ٣ .

(٥) سورة الأحزاب ٣٣ .

فقالوا : إن لفظة إنما محققة لما أثبت بعدها ، نافية لما لم يثبت ..

وفي ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح .

وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا – وهم النبي ﷺ وفاطمة والحسن والحسين – من أهل البيت غير مقطوع على عصمته ، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم [١] . فهؤلاء الشيعة كعادتهم يقولون كالمنافقين بالإفك في أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقاتلهم الله ! .

وفي الرجعة استدلوا بقوله تعالى : ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ﴾ [٢].

فقال الطبرسي : ((وأستدل أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة)) [٣] .

أما المهدي فاستدلوا بقوله تعالى : ﴿ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ [٤].

فقال الطبرسي : ((.. وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه . ويدخل فيه ما رواه اصحابنا من زمان غيبة المهدي ووقت خروجه)) [٥].

ويذهب الشيعة في تفسيرهم مذهب المعتزلة فيما ذهبوا إليه من إنكار رؤية الله في الجنة للمؤمنين وفسروا النظر بالانتظار ((فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المعدّ لهم في الحال من أنواع النعيم ، وينتظرون أمثالها حالاً بعد حال))[٦].

أما السحر فقد أنكره الشيعة كأصحابهم المعتزلة ((فأما ما روي من الأخبار أن النبي ﷺ سُحر فكان يرى أنه يفعل ما لم يفعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها))[٧].

وينكرون الشفاعة في الكبائر ، ويكثرون من رواية الأحاديث الموضوعة [٨].

وكل هذا ما لم ينزل به الله سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً ، ولا رووه عن رسول رب العالمين ، ولا عن أهل بيته الطيبين الطاهرين، ولا عن السلف المتقدمين ، من الصحابة والتابعين ، فكان افتراء على الله وما كانوا مهتدين .

---

(١) مجمع البيان لعلوم القرآن ، للطبرسي ، طبع طهران ، ١٣١٤هـ ، ج١ ، ص ٥٠ .

(٢) سورة البقرة ٥٦ .

(٣) مجمع البيان لعلوم القرآن للطبرسي ، ج١ ، ص ٥٠ .

(٤) سورة البقرة ٣ .

(٥) المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٧ .

(٦) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٣٥٥ .

(٧) نفس المصدر ، ج١ ، ص ٥٧

(٨) وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ١٣٥ ، ١٣٧ .

والشيعة يطعنون في أصحاب رسول الله ﷺ بل ويكفرونهم !! مما أدى إلى قولهم بتحريف القرآن وأنه ناقص ، وإلى ردّهم الصحيح من سنة رسول الله ﷺ واعتمادهم على ما نسبوه للأئمة بسندهم ، ويقولون إن العباد خالقون لأفعالهم، كالمعتزلة [١]. يقول الخراساني أحد مفسريهم في إثبات تحريف القرآن :((اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير في القرآن بحيث لا يكاد يقع شك في صدور بعضها منهم – أي الصحابة–!.. فإن قيل إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه ، والحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه ، واتباع أحكامه .

فنقول : إن الزيادة والنقيصة والتغيير في القرآن لم تكن مخلة بمقصود الباقي منه ، بل نقول : كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم .. وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعية لنا ولو كان مغيراً تغييراً مخلاً بمقصوده ... !)) [٢].

والصوفية لم يكونوا بأحسن حالاً من أصحابهم الشيعة ، بل إن مذهب الصوفية نجده حاضناً لكل فرق البدع ، ذلك لابتعادهم عن سنة المصطفى ﷺ وقد أخضعوا تفسير القرآن إلى ما ذهبوا إليه في أقسام التصوف فكان ؛

١ – التفسير الصوفي النظري ((وهو تفسير يخرج بالقرآن عن هدفه الذي يرمي إليه إلى ما يهدف إليه الصوفي ، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد . وابن عربي هو شيخ هذه الطريقة في التفسير متأثر بنظرية وحدة الوجود التي بنى عليها تصوفه ، فيشرح الآيات على وفق هذه النظرية)) [٣] . وفي تفسيره لقوله تعالى ﴿ ... رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلاً ... ﴾ [٤] . أي شيئاً غيرك ؛ فإن غير الحق هو الباطل ، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك وسبحانك ننزهك أن يوجد غيرك . أي يقارن شيء فردانيتك . أو يثني وحدانيتك!))[٥] وعلى

---

(١) انظر تفسير القرآن ، عبد الله العلوي ، طبع طهران ١٣٥٢هـ ، ص ٨، ٩، ٤١٧ ، ٥٤٦ .
(٢) بيان السعادة في مقامات العبادة ، سلطان محمد الخراساني ، طبع طهران ، ١٣١٤هـ ، ج١ ، ص ١٢ .
(٣) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٤٦ .
(٤) سورة آل عمران ١٩١ .
(٥) تفسير ابن عربي بتأويلات القاشاني ، عبد الرزاق القاشاني ، المطبعة الأميرية بمصر ، ١٢٨٣هـ ، ج١ ، ص٥٠ .

هذا فكل الوجود هو الله ؟! تعالى الله عن قولهم! .

٢ - التفسير الصوفي الفيضي الإشاري :

وهو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضي إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك وترتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تتكشف له فيها الإشارات القدسية والمعارف السبحانية))[١].

قال الألوسي في مقدمة تفسيره : ((فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه ، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل . ثم نقل عن ابن عربي في تفسيره للفاتحة قوله : فإذا وقع الجدار ، وانهدم الصور وامتزجت الأنهار والتقى البحران ، وعدم البرزخ ، صار العذاب نعيماً ، وجهنم جنة ولا عذاب ولا عقاب ، إلا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان ! . يقول الألوسي بعد نقله هذا الكلام الغريب! : وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافي ما وردت به القواطع .. وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه ، وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى ، فسلمه له بالمعنى الذي أرادوه))[٢] !.

إن هؤلاء هم أصحاب الشطحات فلا دليل من النقل ولا رادع من العقل ، قال ابن خلدون: ((وليس البرهان والدليل بنافع في هذا الطريق رداً وقبولاً ، إذ هي من قبيل الوجدانيات))[٣]. ((ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت في البعد والغرابة ، وفي تفاسيرهم الغريبة للقرآن مزلة قدم .. ليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم .. وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد في آيات الله))[٤].

أما الخوارج :فقد كان جمودهم عند ظواهر الآيات القرآنية ، أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخاً أو مخصصاً أو منشئاً لأحكام ((وقد تملك

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ٣٥٢ .

(٢) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني ، محمد الألوسي ، المطبعة المنيرية ، ج١ ، ص ٨ ، ١٤٢ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٥ .

(٤) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ٣٧٦ .

هذا المبدأ قلوب وعقول الخوارج ، حتى وضعوا لأنفسهم حديثاً : إنكم ستختلفون من بعدي ، فما جاءكم عني فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس عني . قال عبدالرحمن بن مهدي :((الزنادقة وضعوا حديث ما أتاكم عني فاعرضوه على كتاب الله)) [١]. وقد أنكروا حكم الرجم ، فالمحصنة حدّها الجلد [٢]، وأنكروا الشفاعة لأهل الكبائر عند قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمۡ وَكَانُواْ شِيَعٗا ﴾ [٣]فقال مفسرهم : ((فالآية نص .. في أن لا شفاعة لأهل الكبائر ، أي أنت بريء منهم على كل وجه))[٤]. ويقول : ((إني استقرأت مذهبنا معشر الأباضية ومذهب الشافعية والمالكية والحنفية والحنابلة ، فلم أر مستقيماً في علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا)) [٥] .

أما الباطنية الإسماعيلية :

وهم طائفة انحدرت من فرقة الشيعة اتخذوا من تأويل القرآن باباً للوصول إلى أغراضهم ، والعمل على هدم الشرائع عموماً وشريعة الإسلام على الخصوص فأعملوا معاولهم لهدم ركن الإسلام المكين ويأبى الله ، فقالوا إن ((للقرآن ظاهراً وباطناً ، والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر والمتمسك بظاهرة معذب ، بالشقشقة في الكتاب ، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهرة ..

ومن هدمهم للشريعة قولهم : والصلاة عبارة عن الناطق الذي هو الرسول والزكاة عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هي عليه من الدين ، والكعبة النبي والطواف بالبيت سبعاً موالاة الأئمة السبعة – لأن سلسلة الأئمة عندهم سبعة بخلاف الإمامية الإثني عشرية – والجنة راحة الأبدان من التكاليف والنار مشقتها بمزاولة التكاليف)) [٦] .

---

(١) القول الفصل ، مصطفى صبري ، مطبعة عيسى الحلبي ، ١٣٦١ هـ ، ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٢) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة م . كردستان ، سنة ١٣٢٦هـ ، ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٥٩

(٤) هميان الزاد إلى دار المعاد ، محمد يوسف اطفيش ، طبع زنجبار ، سنة ١٣١٤هـ ، ج ٢ ، ص ٢٩٩ ،

(٥) نفس المصدر ، ج ٨، ص ٢١٣ .

؛ وانظر التفسير والمفسرون ج٢ ، ص ٣٢٦ .

(٦) شرح المواقف : السيد الشريف الجرجاني ، دار السعادة ، مصر سنة ١٣٢٧هـ ، ج٨، ص ٣٨٨ .

كما أنهم يرفضون المعجزات ، ولا يعترفون بالرسل وينكرون الوحي وأنكروا الظاهر وأخذوا بالباطن .. وأبليس وآدم عبارة عن أبي بكر وعلي، إذ أُمر أبو بكر بالسجود فأبى .. ويأجوج هم أهل الظاهر ..)) [١] .

ثم جاء أفراخهم البابية والبهائية في العصر الحديث فساروا على ما سار عليه أوائلهم الباطنية ، حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجيء ميرزا حسين الملقب ببهاء الدين ، الذي قال في كتابه وطبقاً للتفاسير البهائية ، يكون مجيء المظهر الأعظم بهاء الله : هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التي نعيش فيها الآن)) [٢]. وفي هذا الكتاب يقول : ((قال أبو جعفر الطوسي : قلت لأبي عبد الله – أحد أئمتهم السبعة – أنتم الصراط في كتاب الله وأنتم الزكاة ، وأنتم الحج ؟ قال : يا فلان .. نحن الصراط في كتاب الله عز وجل ونحن الزكاة ونحن الصيام ، ونحن الحج ، ونحن الشهر الحرام ، ونحن البلد الحرام ، ونحن كعبة الله ، ونحن قبلة الله ، ونحن وجه الله)) [٣] ! .

وقد ادعى هذا البهاء أنه رسول الله ! وأثبت هذا القول في كتابه حيث يقول: ((لعمر الله إن بهاء ما نطق عن الهوى ، قد أنطقه الذي أنطق الأشياء بذكره وثنائه، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار .. ولعمري ما أظهرت نفسي بل الله أظهرني)) [٤] بل أراد أن ينزّل القرآن عن مستواه وإعجازه حتى يكون في درجة البيان والكتاب عندهم ، فقال : ((ولا يعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته وبلاغته .. كما يدعيه القوم)) [٥] ، وهذه الفرق وغيرها من التي أعرضت عن السنة الصحيحة وجادلت في كتاب الله بغير علم .

أما الفلاسفة فأخضعوا النصوص الشرعية بما يتفق مع الآراء الفلسفية

---

(١) فضائح الباطنية ، الغزالي ، طبع ليدن ، سنة ١٣٣٦ ، ص ١٣ .

(٢) وسائل الإصلاح ، محمد الخضر حسين ، مطبعة القدس ، ١٣٥٨هـ ، ج٣ ، ص ١٠٣ .

(٣) كتاب بهاء الله ، ميرزا حسين بهاء الله ، دار السعادة ، سنة ١٣٤٠هـ ، ص ٨٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٧، ٩ .

(٥) الحجج البهية ، أبو الفضائل الإيراني ، دار السعادة ١٣٤٥هـ ، ص ٣٧ .

وشرحوا تلك النصوص بآرائهم الفلسفية ، واعتقدوا أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان الناس وأن ((النبي ﷺ يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح في السرّ والعلن ، غير مرموز ولا مكتوم ، ثم يشير إليها ، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة والمعاني المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور ، وتقبلها نفوسهم)) [١] . وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مراد ، فإن ((الإمامية الإثني عشرية والباطنية الإسماعيلية، ومتطرفي الصوفية ورجال الفلسفة الإسلامية ، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه ، ذلك هو ما يعبرون عنه بالرمز ، أو الإشارة أو الباطن ، رأوا فيها عوناً كبيراً على ترويج بدعهم ونشر ضلالهم بين المسلمين)) [٢] . فهؤلاء ((أهل التجهيل والتضليل الذين حقيقة قولهم : أن الأنبياء وأتباع الأنبياء جاهلون ضالون ، لا يعرفون ما أراد الله بما وصف نفسه من الآيات وأقوال الأنبياء، ويقولون يجوز أن يكون للنص تأويل لا يعلمه إلا الله ، لا يعلمه جبرائيل ولا محمد ولا غيره من الأنبياء ، فضلاً عن الصحابة والتابعين لهم بإحسان)) [٣] .

وهم يفسرون الملائكة بأنهم كواكب الأفلاك فيقولون ((إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سماواته ، خلقهم الله لعمارة عالمه ، وتدبير خلائقه)) [٤] . وبهذا وأمثاله يتم تغيير معالم الدين الصحيح ، أما ((الأصول التي اتفقت عليها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم ، فلم يؤمن بها حقيقة الإيمان إلا أتباع الرسل . أما أعداؤهم ومن سلك سبيلهم من الفلاسفة وأهل البدع فهم متفانون في جحدها وإنكارها، وأعظم الناس لها إنكاراً الفلاسفة المسمون عند البعض بالحكماء ، فإن من علم حقيقة قولهم علم أنهم لم يؤمنوا بالله ولا رسوله ولا كتبه ولا ملائكته ولا باليوم الآخر ، فإن مذهبهم أن الله موجود لا ماهية له ولا حقيقة .. وينفون عنه سمعه وبصره وسائر صفاته ، فلا يكلم ولا يتكلم ، والقرآن فيض فاض من العقل الفعال

---

(١) رسائل أخوان الصفا ، مطبعة تحفة الأخبار ، سنة ١٣٠٦هـ ، ج٤ ، ص ١٨٥ .

(٢) انظر التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ٤٣١ .

(٣) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٥٢٧

(٤) رسائل أخوان الصفا ، ج١ ، ص ٩٨

عندهم على قلب بشر زاكي النفس ، والوحي أمور ذهنية فليس في الخارج ذات منفصلة ، وأما اليوم الآخر فهم أشد الناس تكذيباً له وإنكاراً في الأعيان ، ولا يقوم الناس من قبورهم إلى جنة ونار ؟ كل هذا عندهم أمثال مضروبة)) [1] .

أصحاب المدرسة العقلية في العصر الحديث وأثرها في التفسير:

وهم الذين استرشدوا بالعقل وحده حكماً منفرداً في كل أمور الدين ، فأعرضوا عن السنة في بيان كتاب الله المبين ((وهم الذين أعطوا لعقولهم حرية واسعة ، فتأولوا بعض الحقائق الشرعية التي جاء بها القرآن الكريم ، وعدلوا بها عن الحقيقة إلى المجاز والتمثيل ، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب ، استبعاد لقدرة البشر القاصرة ، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن .

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة في بعض تعاليمها وعقائدها ، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعاني ما لم يكن معهوداً عند العرب في زمن نزول القرآن ، وطعنت في الأحاديث تارة بالضعف ، وتارة بالوضع مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخاري ومسلم وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم)) [2] .

ولقد انبهر أصحاب هذه المدرسة بالحضارة الغربية فأرادوا اللحاق وجسر الفجوة بين التفكير الغربي المادي وبين عقيدة المسلمين في الوحي والبعث وإمارات الساعة والقضاء والقدر والمعجزات وأصل الإنسان والملائكة والجن ،فقالوا في الوحي : ((وقد عرّفوه شرعاً إنه إعلام الله لنبي من أنبيائه بحكم شرعي ونحوه ، أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بأنه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة .. والنفوس البشرية يكون لها من نقاء الجوهر بأصل الفطرة ما تستعد به من محض الفيض الإلهي لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهي من الإنسانية إلى الذروة العليا وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل غيرها إلى تعقله ، وتتلقى عن العليم الحكيم ثم تصدر عن ذلك العلم إلى تعليم الناس

---

(١) شرح العقيدة الطحاوية ص ٢٩٧ ، ٢٩٨ .

(٢) التفسير والمفسرون ، ج٢ ، ص ٥٤٩ .

ودعوتهم))[1]. إن هذا القول لا يبعد كثيراً عن أقوال الفلاسفة وأصحاب الفيض العقلاني ، ولكن ((الوحي في الشرع هو أن يُعلم الله من اصطفاه من عباده كل ما أراد إطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ، ولكن بطريقة غير معتادة للبشر ، ويكون على أنواع شتى : منه ما يكون مكالمة بين العبد وربه ، كما كلم الله موسى، ومنه ما يكون إلهاما يقذفه الله في قلب مصطفاه ، ومنه ما يكون مناماً صادقاً ، ومنه ما يكون بواسطة أمين الوحي جبريل عليه السلام ، وهو أشهرها ، ووحي القرآن كله من هذا القبيل ، وهو الوحي الجلي ، فيهبط على أساليب شتى فتارة يظهر في صورته الملكية ، وتارة في صورة إنسان يراه الناس ، وتارة خفية يظهر أثره على صاحب الرسالة ، ويكون وقعه على الرسول كوقع الجرس إذا صلصل في أذن سامعه))[2] وهذا هو القول الصحيح عند علماء السنة.

البعث وأمارات الساعة :

حاول رجال المدرسة العقلية أن يكون البعث قائماً على الأصول العلمية التي يزعمها هؤلاء ، فأولوا الآيات ، وقالوا : ((نطق القرآن الكريم بأن الأرض تفنى بتفرق مادتها ثم يعيدها الله كما بدأها ، قال تعالى ﴿ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا * وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا * فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴾[3] فهذه الرجة هي التي أسماها في سورة أخرى بالقارعة والصاخة والمعقول أن كوكباً يقرعها باصطدامه بها فتتفتت جبالها وتكون كالهباء المتفرق في الجو وهو ما يسمونه بالسديم))[4].

وأنت ترى إقحام التفسير العلمي في القرآن الكريم ، وأحسب أن هذا لا يصح فهذه أمور غيبية ليس لنا أن نذكر فيها إلا ما ورد الشرع به ، و((هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به ، حتى يسلم له دينه ، ولا يرتاب في اعتقاده ، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شيء ، وجعلناه مصدراً لجوامع الطب ، وضابط الفلك، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، لكنا بذلك أوقعنا الشك في

---

(١) رسالة التوحيد، محمد عبده ، تصحيح محمد رشيد رضا، دار المنار، مصر، سنة ١٣٦٥هـ ص١٠٨، ١١٠ .

(٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد الزرقاني، عيسى الحلبي ، دار إحياء الكتب ، ج١ ، ص ٥٦ ، ٥٧.

(٣) سورة الواقعة آية ٤ ، ٥، ٦ .

(٤) تفسير المنار ، محمد رشيد ، ج٨ ، ص ٤٧١ ، ٤٧٢ .

عقائد المسلمين ، نحو القرآن ، وذلك أن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات ، لا قرار لها ولا بقاء ، وحسبهم أن لا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جدّ وما يجّد من نظريات وقوانين علمية ثابتة تقوم على أساس من الحق)) [١]. ((ثم هناك الإعجاز العلمي للقرآن الكريم ، حيث يعرض القرآن في كثير من آياته مسائل هي من صميم العلم التي تكشفت في هذا العصر .. ذلك الكتاب الذي لا يقف إعجازه عند عصر معين ، ولا يختص بثقافة بالذات)) [٢]. فيكون إعجاز القرآن باباً مستقلاً ثابتاً حتى تقوم الساعة وهذا يمكّن الدعاة في كل عصر بطرْق وسيلة جديدة مواكبة لما استجد من العلوم والحقائق التي سبق القرآن ببيانها قبل أربعة عشر قرنا من الزمان فتكون حجة على طالبي الحق من أهل الإنصاف .

وبمثل ذلك قالوا في أمارات الساعة ((وجملة القول في حديث الجساسة أن ما فيه من العلل والاختلاف والإشكال من عدة وجوه يدل على أنه مصنوع ، وكذا يقال في سائر أحاديث الدجال واحتمال كونها من الاسرائيليات أو أن الدجال رمز للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها والأخذ بأسرارها وحكمها)) [٣] .

وقالوا في أحاديث طلوع الشمس من مغربها : ((ولهذا فإن أبا هريرة رضي الله عنه لم يصرح في هذه الأحاديث بالسماع من النبيﷺ فتكون مرسلة رواها عن كعب الأحبار ، ولكن مجموع الروايات تثبت هذه الآية بالجملة فننظمها في سلك المتشابهات ونحمل التعارض على ما أشرنا إليه من الأسباب كالرواية عن كعب الأحبار من روايته للإسرائيليات)) [٤] . ((والنفخ في الصور في لسان الشرع قد يكون تمثيلاً وتصويراً لبعث الأموات وانبعاثهم من أرماسهم بسرعة ، تحكي سرعة المجتمعين وقد هتف بهم من بوق عظيم)) [٥] ! . فلا حقيقة عندهم لأوامر الشرع.

---

(١) التفسير والمفسرون للذهبي ، ج٢ ، ص ٤٩٢ ، ٤٩٤ .
(٢) الإسلام في مواجهة أعدائه ، توفيق وهبة ، ص ٧٤ .
(٣) تفسير المنار ، ج٩ ، ص ٤٥٧ ، ٤٥٨ .
(٤) نفس المرجع ، ج٨ ، ص ٢١١ .
(٥) تفسير جزء تبارك ، عبد القادر المغربي ، المطبعة الأميرية ، مصر ، ١٣٦٦هـ ، ص ٣٦ .
؛ وانظر منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ، د . فهد الرومي ، مؤسسة الرسالة ، الطبعة الرابعة . بيروت ، ص ٤٨٦ -٥٢٩ .

فهم يحملون هذه النصوص القرآنية الصريحة على بعض أحوال يوم القيامة على أنها تمثيل وتصوير لا حقيقة له ، وذلك شأنهم مع القصص القرآني أيضاً ، وأما في القدر فمنهم من قال بالجبر ومنهم من قال بالاختيار وهم مع هذا أصحاب حيرة واضطراب فقد مال كل منهم إلى رأي يخالف الآخر ثم قال بعضهم : ((إنا نستطيع أن نذكر في هذا الموضوع كلاماً ننفي به صفة الجهل ولكننا نعلم أنه ما من حل لهذه المسألة إلا وهو قابل للنقد والرد)) [١] لأنهم حكّموا العقل فيما يجب الأخذ فيه بالنقل .

والحق ما قال أهل السنة : ((لقد دل القرآن وسائر كتب الله المنزلة على عموم قدرة الله تعالى ومشيئته لجميع ما في الكون من الأعيان و الأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة وأنهم يستوجبون عليها المدح والذم)) [٢].

أما المعجزات :

فقد كان لأصحاب المدرسة العقلية قبولاً ورفضاً فأثبتوا معجزة القرآن ، وأنكروا سائر معجزات النبي ﷺ فقالوا : ((وأما آيته – أي محمد ﷺ – التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى وهي القرآن وأمية محمد ﷺ ، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان ، وأما تلك العجائب الكونية ، فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة ، في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها)) [٣].((ولم تكن معجزة النبي ﷺ القاهرة إلا في القرآن وهي معجزة عقلية))[٤].

واستدلوا بحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول ﷺ أنه قال : ((ما من نبي من الأنبياء إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة)) [٥] .

والنبيﷺ لم يرد نفي معجزات الأنبياء السابقين ولا ما أعطاه الله من معجزات أخر ، وإنما أراد ﷺ أن معجزته لا تنقرض بانقراض زمنه ولا بموته ،

---

(١) المصحف المفسر ، محمد فريد وجدي ، كتاب الشعب ، ص ١٣٨ .

(٢) شرح العقيدة الطحاوية ص، ٤٣٧ .

(٣) تفسير المنار ، محمد رشيد ، ج١١ ، ص ١٥٥ .

(٤) حياة محمد ، محمد حسين هيكل ، دار المعارف بمصر ، سنة ١٣٩٤هـ ، ط١٢ ، ص١٣ .

(٥) سبق تخريجه ص ٢٢٠.

إنما هي خالدة بينما معجزاتهم عليهم السلام منقطعة بوقتها ، ولهذا يرجو أن يكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة وهذا ثابت نقلاً وشهوداً ، وقد وجدت النصوص المعارضة لما ذهبوا إليه فقالوا : ((وقد يعارضه – يعني الحديث السابق – آية انشقاق القمر مع ما ورد في أحاديث الصحيحين ، ولكن في الأحاديث الواردة في انشقاقه عللاً في متنها وسندها ، وإشكالات علمية وعقلية وتاريخية .. وأن ما تدل عليه الآيات المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن)) [1].

وقد فسروا انشقاق القمر ((بظهور الحجة)) [2].

فكان ردّ الشيخ مصطفى صبري من تركيا الإسلامية حين قال : ((ثم ليعلم الذين يتنازلون عن معجزات نبينا الكونية ويقصرون معجزته على القرآن إرضاء لمفكري المستشرقين وتفضيلاً لموافقتهم .. إن القرآن مهما حبب إليهم وأعجبوا به فلا يبلغ تقديرهم وإعجابهم مبلغ اعتباره معجزة تثبت بها نبوة محمد ﷺ .. أما أنه كلام الله أنزل على خاتم أنبيائه ليكون له معجزة النبوة و الرسالة ، فأمر خارق لسنة الكون ، لن يقبله منكروا المعجزات والخوارق .

وما دام أناس من المسلمين وفيهم مؤلف – حياة محمد – ينكرون معجزاته الكونية لا لعدم استنادها إلى الروايات الصحيحة بل لكونها مخالفة لسنة الكون والعلم، فكيف ينتظر من المستشرقين أن ينظروا إلى القرآن على أنه معجزة خارقة، أعني أنه كلام الله لا كلام سيدنا محمد ﷺ كما يدّعون ؟ فالواجب أن يداوى أساس الداء وتقاوم حملات المنكرين)) [3] .

أصل الإنسان :

أخبر الله سبحانه في محكم كتابه العزيز بكيفية خلق أصل الإنسان ، وتبين ذلك في صحيح السنة ، واستفتح الله رابع سورة في القرآن الكريم ((سورة النساء)) بقوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً ﴾ [4] وقد خلق الله آدم من تراب ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا

---

(١) تفسير المنار ، محمد رشيد ، ج١١ ، ص ٣٣٣ .

(٢) الوحي المحمدي ، محمد رشيد ، مطبعة المنار ، مصر ، ١٣٥٤هـ ، ص ٦٩ ، ٧٠ .

(٣) موقف العقل والعلم والعالم من رب العالمين وعباده المرسلين ، مصطفى صبري، المكتبة الإسلامية لصاحبها الحاج رياض الشيخ ، سنة ١٣٦٩ هـ ، ج٤ ، ص ١١١.

(٤) سورة النساء ١ .

ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَـٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴾ [1] .

ولكن أصحاب مدرسة العقل في تفسير القرآن بعضهم من توقف والبعض الآخر تأول فقالوا : ((وجمهرة العلماء على أن المراد بالنفس الواحدة هنا آدم ، وهم لم يأخذوا هذا من نص الآية بل أخذوه تسليما وهو أن آدم أبو البشر .. وقال بعضهم: أبهم الله تعالى أمر النفس التي خلق الناس منها ، فلندعها على إبهامها فإذا ثبت ما يقوله الباحثون من أن لكل صنف من أصناف البشر أباً كان ذلك غير مخالف لكتابنا)) [2] .

وقالوا : ((إن ظاهر الآية يأبى أن يكون المراد بالنفس الواحدة آدم سواء كان هو الأب لجميع البشر أم لا .. وليس في القرآن نص أصولي قاطع على أن جميع البشر من ذرية آدم .. وأن ثبوت ما يقوله الباحثون . من أن البشر عدة أصول ومن كون آدم ليس أباً لهم كلهم في جميع الأرض قديماً وحديثاً كل هذا لا ينافي القرآن ولا يناقضه ويمكن لمن ثبت عنده أن يكون مسلماً مؤمناً بالقرآن)) [3] . نعم إنهم فتحوا دهليزاً للطعن في الشرائع .

قال البغدادي ناقلاً وصية أحد أئمة الباطنية : ((وإني أوصيكم بتشكيك الناس في القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وبدعوتهم إلى إبطال الشرائع وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور ، وإبطال الملائكة في السماء ، وإبطال الجن في الأرض، وأوصيك بأن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم)) [4] .

وما أصدق محمد الصادق عرجون في وصف مذهبهم ، حيث قال : ((إن هذا الطريق في تفسير آيات القرآن الحكيم بتسليط التأويل على كل ما يتعاصى فهمه على بعض العقول وإحالة أو استبعاد ظاهر المعنى إلى ضرب من التمثيل ، هو الذي يخشى أن ينفذ منه – المتقرمطون – إلى تحريف كلم الله عن مواضعها ابتغاء فتنة الجماهير من عامة المؤمنين .. إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى بلسان

---

(١) سورة المؤمنون آية ١٢، ١٣

(٢) تفسير المراغي ، ج٤ ، ص ١٧٥ .

(٣) تفسير المنار ، ج٤ ، ص ٣٢٦ .

(٤) الفرق بين الفرق ، عبد القاهر البغدادي ، ص ٢٨٠ .

عربي مبين هدى للناس ورحمة ، ولم ينزله بالإشارات والرموز والإيحاءات)) [1] .

بل إن المستشرقين قد وجدوا ضالتهم في الإساءة للإسلام ، فكان ثناؤهم وإطراؤهم للمدرسة العقلية القديمة ، فقال المستشرق جولد تسيهر : ((هذه المدرسة تتطلب من الجميع النظر والتفكير النظري في معرفة الله ، وتحكم على التقليد الذي لا أثر للتفكير فيه ، والتزموا طريق المعتزلة ، واستمروا على التوسع في استعمال طريقة التأويل ، وبغير هذا كان لا يمكن الفرار من التجسيم ، لأن إرادة توحيد الآراء الحنبلية والآراء الأشعرية كان طلب المستحيل . أما المعتزلة فقد أتموا إتماماً كافياً العمل الضروري في هذا الناحية – أي التأويل الموافق لمذهبهم الاعتزالي في القرآن .

أما الحديث فقد كان اهتمامهم من أجله أقل ؛ إذ كان لديهم هنا الوسيلة السهلة الميسورة ، وهي أن يعلنوا ببساطة عدم صحة الأحاديث التي توجد فيها تعابير شائكة ، وبذلك لا يشغلون أنفسهم بعد هذا بشيء من التفسير والتأويل العقلي)) [2] .

قال الشهيد سيد قطب رحمه الله في ردّه على المدرسة العقلية الحديثة ورفضه توجهها ، ((إننا ندرك ونقدّر دوافع المدرسة العقلية إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات في تفسير القرآن الكريم وأحداث التاريخ والتي تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل .

ولكن مواجهة ذلك من جهة أخرى تركت آثارها في تلك المدرسة من المبالغة في الاحتياط والميل إلى جعل مألوف السنن الكونية هو القاعدة الكلية لسنة الله . فشاع في تفسيرهم الرغبة الواضحة في رد الكثير من الخوارق وإلى تأويل بعضها بحيث يلائم ما يسمونه المعقول ، وإلى الحذر من تقبل الغيبيات . وأننا نلاحظ عنصر المبالغة فيه ، وإغفال الجانب الآخر للتصور القرآني الكامل . وهو طلاقه مشيئة الله وقدرته وراء السنن التي اختارها ، التي لا تجعل العقل البشري هو الحاكم الأخير ، ولا تجعل معقول هذا العقل هو مرد كل أمر بحيث يتحتم تأويل ما لا

---

(١) نحو منهج لتفسير القرآن محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر، جدة، ١٣٩٢هـ، ص ٣٩ ، ٤٠ . ؛ وانظر منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير د . الرومي ص ٥٤٥ – ٦١٤ .

(٢) العقيدة والشريعة ، جولدتسيهر ، دار الكتب الحديثة بمصر ، ترجمة محمد يوسف موسى وآخرون ، انظر ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

يوافقه كما يتكرر هذا القول في تفسير أعلام هذه المدرسة)) [1] .

بل إن خطراً آخراً غير التأويل هو مصانعة المستشرقين ومن وراءهم فهم ((يزيدون على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكفار – يهوداً أو نصارى – بتغيير المفهوم الإسلامي وإلغاء الحاجز بين الفكر الحق والفكر الضال المنحرف، وإذا ما ألغي جانب العقيدة في ميزان التفاضل فإن الكفة سترجح حتماً بنا وسيصبح الكفار هم الأفضل والأقوى ، ومن ثم تكون لهم السيطرة وتكون لهم الدولة وحينئذ تكون خسارتنا للدين والدنيا ...)) [2] . وقد بين الله حالهم حين تكون لهم الغلبة فقال تعالى : ﴿ إِن يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُواْ لَكُمْ أَعْدَآءً وَيَبْسُطُوٓاْ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُم بِٱلسُّوٓءِ وَوَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ ﴾ [3]

---

(١) في ظلال القرآن ، الشيخ سيد قطب ، ج٦ ، ص ٣٩٧٨ .

(٢) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير د . الرومي ، ص ٨١١ .

(٣) سورة الممتحنة آية ٢ .

الفصل الخامس

ضعف الدوافع والبواعث على الأعمال الصالحة
نتيجة لضعف اليقين بثوابها الثابت بخبر الآحاد

وفيه :

- تمهيد
- نماذج في بيان ثواب العمل الصالح بأدلته

تمهيد

إن العمل الصالح الذي تزكوا به النفوس ، وتطهر به القلوب ،وتصفوا به الفطر ، وتعمر به الحياة ، وتعلو به الهمة أثر من آثار الإيمان ، بل هو الإيمان ، وأعظم ما يبدو فيه الإيمان الاستمساك بالوحي، لأنه المنبع الصافي الذي لم يختلط بشائبة الهوى ، أو آفة الظنون.

والاستمساك بالوحي هو السر في اقتران العمل الصالح بالإيمان : ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهۡدِيهِمۡ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمۡ ﴾ (١) .

و﴿ مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴾ (٢) .

وتتمثل هذه الحياة في ولاية الله للمؤمن ، وهدايته له ، ونصره له ، ونصره على أعدائه ، وحفظه مما يبيت له ، و أخذه بيده كلما عثر ، أو زلت به القدم ، فضلاً عما يفيضه ، عليه من متاع مادي يكون عوناً له لقطع مرحلة الحياة في يسر (٣) .

وقد أمر الله أنبيائه تبليغ دعوته للناس بالإيمان المقتضي العمل به للنجاة من النار والفوز بالجنة ، فعن الحارث الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال : ((إن الله سبحانه وتعالى ، أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بها ، ويأمر بني إسرائيل أن يعملوا بها ..

فقال : إن الله تبارك وتعالى أمرني بخمس كلمات أن أعملهن وآمركم أن تعملوا بهن ، أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وأن مثل من أشرك بالله كمثل رجل اشترى عبداً من خالص ماله بذهب أو ورق ، فقال له : هذه داري ، وهذا عملي فاعمل وأدّ لي . فكان يعمل ويؤدي إلى غير سيده ، فأيكم يرضى أن يكون عبده كذلك ؟! .

---

(١) سورة يونس آية ٩ .

(٢) سورة النحل آية ٩٧

(٣) انظرالعقائد الإسلامية ، السيد سابق ، ص ٨٢ ، ٨٨ .

وإن الله أمركم بالصلاة ، فإذا صليتم فلا تلتفتوا ، فإن الله ينصب وجهه لوجه عبده في صلاته ما لم يلتفت .

وأمركم بالصيام . فإن مثل ذلك ، كمثل رجل في عصابة ، معه صرة فيها مسك فكلهم يعجب أو يعجبه ريحه ، وإن ريح الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وأمركم بالصدقة ، فإن مثلَ ذلك مثلُ رجل أسره العدو فأوثقوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه ، فقال أفتدي منكم بالقليل والكثير ففدى نفسه منهم .

وأمركم أن تذكروا الله تعالى فإن مثل ذلك كمثل رجل خرج العدو في أثره سراعاً ، حتى إذا أتى على حصن حصين ، فأحرز نفسه منهم ، كذلك العبد لا يحرز نفسه من الشيطان إلا بذكره تعالى ..

قال النبي ﷺ : وأنا آمركم بخمس الله أمرني بهن : السمع والطاعة ، والجهاد، والهجرة ، والجماعة ، فإنه من فارق الجماعة قيد شبر ، فقد خلع ربقة[1] الإسلام من عنقه ، إلا أن يرجع ، ومن ادعى دعوى الجاهلية فإنه من جثاء [2] جهنم، فقال رجل : يا رسول الله ! وإن صلى وصام ؟!

قال: وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم ، فادعوا بدعوى الله الذي سماكم المسلمين المؤمنين عباد الله)) [3] . قال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح .

هذه الأعمال وهذا ثوابها من عند الله ، وفيها نجاة العبد من النار إن أخلص لوجه الله ، وفيها استقبال الصلاة من العبد ، وأن الله ينظر إلى عبده بوجهه الكريم وإن صيامه معطر بالمسك ، وهذا منتهى القبول والرضى من الله ، وأن صدقته تقيه

---

(١) الربقة في الأصل : عروة في حبل تجعل في عنق الدابة أو بها لتمسكها ، فاستعارتها للإسلام يعني ما يشد به المسلم نفسه من عرى الإسلام أي حدوده وأحكامه وأوامره ونواهيه . ومعنى مفارقة الجماعة ترك السنة واتباع البدعة . لسان العرب ج١ ، ص ١١٣ .

(٢) جمع جثوة وهو الشيء المجموع ، وفي الحديث : فلان من جثي جهنم ، أي من جماعات أهل جهنم . لسان العرب ، ج١٤ ، ص ١٣ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الأمثال ، باب ما جاء في مثل الصلاة والصيام والصدقة ، ج٥ ، ص ١٤٨ .
؛ مسند الإمام أحمد ج ٤ ، ص ٢٠٢ .
؛ المستدرك للحاكم وقال : الحديث على شرط الأئمة صحيح محفوظ ، ووافقه الذهبي ج١ ، ص ٣٦٢ .

مصارع السوء وتطفئ غضب الله، وأن السمع والطاعة والجهاد والهجرة والجماعة شريعة محمد ﷺ وبها تقوم أحوال الأمة ، ويعز الإسلام ويأمن جانب المسلم في أهله وماله وعرضه ودينه وعقله ونفسه وهي الضروريات الخمس التي حفظها الإســـلام لأهله .

وبهذا فإن المسلم المطيع لله ورسوله ﷺ قد حاز ثواب الدنيا والآخرة ، بمـــا قدم في هذه الدنيا ملتزما بشرع الله مخلصاً متبعاً ((واعلم إن الشرط العام في قبول جميع أنواع الطاعات والفوز بأجرها وثوابها هو الإخلاص وكل عمل لا يصدر عن إخلاص فهو إلى الهلاك أقرب)) (١).

قال الباحث : والإخلاص متضمن للإتباع فهو شرط ثان في قبول العمل .

وفي الصحيحين عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : ((ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه و بينه ترجمان ، فينظر أيمن منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر أشأم منه ، فلا يرى إلا ما قدم ، وينظر بين يديه ، فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه ، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)) (٢) .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : سألت رسول الله ﷺ : ((ماذا ينجي العبد من النار ؟ قال : الإيمان بالله .

قلت يا نبي الله ! مع الإيمان عمل ؟

قال : أن ترضخ (٣) مما خوّلك الله ، أو ترضخ مما رزقك الله .

قلت يا نبي الله فإن كان فقيراً لا يجد ما يرضخ ؟

قال : يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. قلت : إن كان لا يستطيع أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؟ .

---

(١) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح ، للحافظ عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ، دراسة وتحقيق عبد الملك بن دهيش ، مطبعة النهضة الحديثة مكة المكرمة الطبعة الرابعة ١٤٨٠هـ ص ٧١٦ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الرقاق ، باب من نوقش الحساب عذب ، ج١١ ، ص ٤٠٠ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة ، باب الحث على الصدقة ولو بشق تمرة ، ج٧ ، ص ١٠١.

(٣) الرضخ : كسر النوى والدقّ وكذلك العطاء القليل اليسير ومنه الحديث : أمرت له برضخ . لسان العرب ، ج٣ ، ص ١٩.

قال : فليعن الأخرق . قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان لا يحسن أن يصنع؟ قال : فليعن مظلوماً؟ ، قلت : يا رسول الله أرأيت إن كان ضعيفاً لا يستطيع أن يعين مظلوما؟

قال : ما تريد أن تترك في صاحبك من خير ؟ ليمسك أذاه عن الناس .

قلت يا رسول الله ! أرأيت إن فعل هذا : يدخل الجنة ؟

قال : ما من مؤمن يصيب خصلة من هذه الخصال إلا أخذت بيده حتى أدخلته الجنة)) (١) .

ولا شك أن هذه الفضائل من الله في قبول الأعمال والثواب بالجنة ورؤية الله لعباده المؤمنين في الجنة أخبار غيب لا يعلمها إلا الله أخبر بها رسول الله ﷺ وحياً من الله ، فأما أهل السنة والجماعة فقد تلقوها بالقبول والرضى والاطمئنان في صحتها وحقيقتها .

وأما الفرق والطوائف الأخرى التي أصّلت أصولاً كلامية أو رافضية أو اعتزالية أو فلسفية فقد تقدم في ثنايا البحث موقفهم من السنة فمنهم الشاك والظّان الراد لها ، والمبتدع لمكذوب الحديث فيها كالشيعة ..

وإن موقف تلك الفرق من الإيمان قد ألقى بظلاله فردّوا أحاديث ثواب الأعمال .

فالمرجئة الذين قالوا إن الإيمان هو التصديق والاعتقاد ، أو التصديق فقط ، أخرجوا الأعمال من دائرة الإيمان أولاً ، وأحاديث الآحاد لا تقبل عندهم في أمور العقيدة وقالوا هذه أخبار غيب لا تقبل إلا بالقطعي الدلالة والثبوت ثانياً.

وأما المعتزلة فعقيدتهم أن الإيمان يزول بارتكاب الكبيرة لان كل عمل شرط في صحة الإيمان ، فهو في منزلة بين المنزلتين فلا مؤمن ولا كافر ويخلد في النار

---

(١) شعب الإيمان للبيهقي ، ج٣ ، ص ٢٠٤ .

؛ المعجم الكبير للطبراني ، مكتبة العلوم والحكم ، الموصل الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ ، تحقيق حمدى السلفي ، ج٢ ، ص ١٥٦ .

؛ مجمع الزوائد للهيثمي ، ج٣ ، ص ١٣٥ ، وقال : رواه الطبراني في الكبير ورجاله ثقات وله طرق أخرى .

؛ ورواه البخاري في صحيحه مختصراً بلفظ مختلف : كتاب الرقاق باب أي الرقاب أفضل انظر ج٥ ، ص١٤٨ .

إن مات ولم يتب فلا قيمة لسائر الأعمال وثوابها عندهم إذا ارتكب كبيرة من الكبائر! .

وأما الخوارج فكالمعتزلة وصاحب الكبيرة كافر في الدنيا والآخرة .

فبذنب واحد يخرج من الملّة ، وهدى الله أهل السنة والجماعة فقالوا : الإيمان قول وعمل واعتقاد يزيد وينقص ﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ﴾ فأصل الإيمان باق ما ظل صاحبه يشهد بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة.

وقد أُلّفت كتب ورسائل في بيان ثواب العمل الصالح والاستدلال على ذلك من الكتاب والسنة .. فكان منها ما ألفه الحافظ أبو محمد شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي ت ٧٠٥هـ – رحمه الله – في القرن السابع الهجري ، وقال في مقدمته : ((وقد بوبته تبويباً ، وهذبته تهذيباً ، عزوت أحاديثه إلى أصولها ، مبيناً صحيحها من عليلها ، واعلم إنني ذكرت في هذا الكتاب كل عمل نص النبي ﷺ على ثوابه .. وسميته ((المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح)) ولما منّ الله بتمامه ، وجاد باختتامه ، عنّ لي أن أقدم ترجمة أبوابه ، تسهيلاً على طلابه)) [١] . ثم ذكر أبواب العلم ، أبواب الطهارة ، أبواب الصلاة ، أبواب صلاة التطوع ، الجمعة ، الجنائز ، الصدقات ، الصوم ، الحج ، الجهاد ، قراءة القرآن ، الذكر ، البر والصلة ، الأدب والزهد ، وجمع فيها أحاديث الثواب فكانت قرابة ١٦٦٤ حديثاً ، يُكتفى بإيراد حديثين من كل باب وهي أخبار آحاد صحيحة المتن والإسناد واعتقدتها الأمة في دينها.

ثواب العلم والعلماء وفضلهم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة)) [٢] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((من دعا إلى هدى كان له

---

(١) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح عبد المؤمن الدمياطي، تحقيق عبد الملك بن دهيش ، المقدمة .

(٢) سنن الترمذي ، كتاب العلم ، باب فضل طلب العلم ، ج٥ ، ص ٢٨وقال حديث حسن .

؛ المستدرك للحاكم وصححه ووافقه الذهبي ج١ ، ص ١٦٥ .

من الأجر مثل أجور من يتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من يتبعه ، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً)) . قال أبو عيسى : هذا حديث حسن صحيح (١) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له)) (٢) .

ثواب الوضوء والسواك :

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال : ((إذا توضأ العبد المسلم أو المؤمن فغسل وجهه خرج من وجهه كل خطيئة نظر إليها بعينيه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، فإذا غسل يديه خرج من يديه كل خطيئة كان بطشتها يداه مع الماء أو مع أخر قطر الماء ، فإذا غسل رجليه خرجت كل خطيئة مشتها رجلاه مع الماء أو مع آخر قطر الماء ، حتى يخرج نقياً من الذنوب)) (٣) .

وعنه رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ((لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة)) (٤) .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ((السواك مطهرة للفهم مرضاة للرب)) (٥) .

ثواب المؤذن والصلاة:

عن عبد الرحمن بن صعصعة رضي الله عنه قال : إن أبا سعيد الخدري رضي الله عنه قال له : إني أراك تحب الغنم والبادية ، فإذا كنت في غنمك وباديتك،

---

(١) سنن الترمذي ، كتاب العلم ، باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى فأتبع أو إلى ضلالة : قال أبو عيسى حديث حسن صحيح ، ج٥ ، ص٤٣ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب العلم ، باب من سن سنة حسنة أو سيئة ج ١٦ ، ص ٢٢٧ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الوصية باب وصول ثواب الصدقات إلى الميت ، ج١١ ، ص ٨٤ .

(٣) نفس المصدر ، كتاب الطهارة ، باب خروج الخطايا مع الوضوء ، ج٣ ، ص١٣٢ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الطهارة باب السواك ج٣ ، ص ١٤٢ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصوم ، باب سواك الرطب واليابس للصائم ، ج٤ ، ص ١٥٨ معلقاً.

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الصيام ، باب سواك الصائم ، ج٤ ، ص ١٥٨ ، رواه البخاري معلقاً .

فأذنت للصلاة فارفع صوتك بالنداء ، فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جنّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة ، قال أبو سعيد : سمعته من رسول الله ﷺ))[١] .

وعن سعد ابن أبي وقاص رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ((من قال حين يسمع المؤذن : وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمد عبده ورسوله ، رضيت بالله رباً وبالإسلام دينا وبمحمد ﷺ رسولاً . غفر الله له ذنبه))[٢].

وعن عثمان رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ما من امرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم تؤت كبيرة ، وكذلك الدهر كله))[٣] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : ((أن رسول الله ﷺ قال : إذ قال الإمام ((غير المغضوب عليهم ولا الضالين)) فقولوا آمين فإنه من وافق قوله قول الملائكة غفر له ما تقدم من ذنبه))[٤] .

ثواب صلاة التطوع :

عن أم حبيبة بنت أبي سفيان رضي الله عنهما قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((ما من عبد مسلم يصلي لله تعالى في كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعاً غير فريضة إلا بنى الله له بيتاً في الجنة ، أوبُني له بيتاً في الجنة))[٥] .

وعن جابر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((إن في الليل لساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيراً من خير الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه ، وذلك كل ليلة))[٦] .

ثواب صلاة الجمعة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال : ((الصلوات الخمس

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الآذان ، باب رفع الصوت بالنداء ، ج٢ ، ص ٨٧ .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصلاة، باب استحباب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، ج٣، ٨٦.
(٣) نفس المصدر ، كتاب الطهارة ، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ، ج٣ ، ص ١١٢ .
(٤) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الآذان باب جهر المأموم بالتأمين ، ج٢ ، ص ٢٦٦ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الصلاة ، باب التسميع والتحميد والتأمين ، ج٤ ، ١٢٨ .
(٥) نفس المصدر ، كتاب الصلاة ، باب فضل السنن الراتبة ، ج٦ ، ص ٦ .
(٦) نفس المصدر ، كتاب الصلاة ، باب صلاة الليل مثنى مثني ، ج٦، ص٣٤ .

والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر))[1].

وعن سلمان رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يغتسل رجل يوم الجمعة ويتطهر ما استطاع من الطهر ويدهن من دهنه ويمسّ من طيب بيته ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين ثم يصلي ما كتب له ، ثم ينصت إذا تكلم الإمام إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى)) [2] .

ثواب من شهد ميتاً حتى يصلى عليه أو يدفن :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((من شهد الجنازة حتى يُصلّى عليها فله قيراط [3] ومن شهدها حتى تدفن فله قيراطان قيل وما القيراطان ؟ قال : مثل الجبلين العظيمين)) [4] .

ثواب من مات بالطاعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم :

وعنه رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : ((ما تعدون الشهداء فيكم؟ قالوا : يا رسول الله من قتل في سبيل الله فهو شهيد . قال : إن شهداء أمتي إذاً لقليل. قالوا : فمن يا رسول الله ؟ قال الشهداء خمسة المطعون والمبطون والغريق وصاحب الهدم والشهيد في سبيل الله)) [5] .

ثواب من مات له ثلاثة أولاد لم يبلغوا :

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلا تحلة القسم)) قال أبو عبد الله : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾ [6] ، [7] .

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الطهارة باب فضل الوضوء والصلاة عقبه ، ج٣ ، ص ١١٧ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجمعة ، باب الدهن يوم الجمعة ، ج٢ ، ص ٣٧٠ .

(٣) القيراط : من الوزن جزء من الدينار ، وأما القيراط الذي في الحديث في تشييع الجنازة فإنه مثل جبل أحد. لسان العرب ، ج٧ ، ص ٣٧٥.

(٤) نفس المصدر ، كتاب الجائز ، باب من انتظر حتى تدفن ، ج٣ ، ص ١٩٦ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجنائز ، باب فضل الصلاة على الجنازة وإتباعها، ج٧ ، ص١٣ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الأمارة باب بيان الشهداء ، ج١٣ ، ص ٦٢ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجهاد ، باب الشهداء سبع سوى القتل ، ج٦ ، ص ٤٣ ، مختصراً .

(٦) سورة مريم ٧١ . قال الخطابي : معناه لا يدخل النار ليعاقب بها ولكنه يدخلها مجتازاً ولا يكون ذلك الجواز إلا قدر ما يحلل به الرجل يمينه . وقال ابن حجر : ووجهه أن المار عليها فوق الصراط في معنى من دخلها ، لكن تختلف أحوال المارة باختلاف أعمالهم فأعلاهم درجة من يمر كلمع البرق . والدليل قوله تعالى في آخر الآية ﴿ ثم ننجي الذين آمنوا ﴾ فتح الباري ج٣ ، ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٧) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجنائز ، باب فضل من مات له ولد فاحتسب ، ج٣ ، ص ١١٨.

ثواب أداء الزكاة :

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن أعرابياً أتى النبي ﷺ ، فقال : ((يا رسول الله دلني على عمل إذا عملته دخلت الجنة ؟ قال : تعبد الله لا تشرك به شيئاً وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤتي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان ، قال : والذي نفسي بيده لا أزيد على هذا . فلما ولّى قال النبي ﷺ : من سرّه أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا)) (١) .

وعنه رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ؛ الإمام العادل . وشاب نشأ في عبادة الله عز وجل، ورجل قلبه معلق بالمساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ورجل دعته أمراة ذات منصب وجمال فقال إني أخاف الله عز وجل . ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه)) (٢) .

ثواب الصوم :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((إذا كان أول يوم في رمضان صفدت الشياطين ومردة الجن وغلقت أبواب النار فلم يفتح منها باب وفتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب وينادي مناد يا باغي الخير أقبل ويا باغي الشر أقصر ولله عتقاء من النار وذلك كل ليلة)) (٣) .

وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن صيام يوم عرفة قال : ((يكفر السنة الماضية والباقية ، وزاد الترمذي : أنه قال : صيام يوم عرفة إني احتسب على الله أن يكفر السنة التي بعده والسنة التي قبله)) (٤) .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الزكاة باب وجوب الزكاة ، ج٣ ، ص ٢٦١ .
؛ صحيح مسلم بشرة النووي ، كتاب الإيمان ، باب الإيمان الذي يدخل الجنة ، ج١ ، ص ١٧٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزكاة باب فضل إخفاء الصدقة ، ج٧ ، ص ١٢٠ ؛ وانظر البحث ص ٦٣٣ هـ ١.

(٣) نفس المصدر كتاب الصيام ، فضل رمضان ، ج٧ ، ص ١٨٧ .
؛ فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتبا الصيام ، باب هل يقال رمضان أو شهر رمضان ، ج٤ ، ص ١١٢ .
؛ سنن الترمذي كتاب الصوم ، باب ما جاء في فضل شهر رمضان ، ج٣ ، ص ٥٧ واللفظ له .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب الصيام ، باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عرفة وعاشوراء ، ج٨ ، ص ٥٠ .
؛ سنن الترمذي كتاب الصيام باب ما جاء في فضل صوم عرفة ، ج٣ ، ص ١١٥ . وقال أبو عيسى حديث أبي قتادة حديث حسن وقد استحب أهل العلم صيام يوم عرفة إلا بعرفة .

ثواب الحج :

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((من حج فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه)) [١] .

وعنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما ، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة))[٢] .

ثواب الغدوة في سبيل الله تعالى والروحة :

عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : ((رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها ، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها))[٣] .

والروحة هي المرة الواحدة من المجيء والغدوة المرة الواحدة من الذهاب[٤].

وعن عروة بن الجعد رضي الله عنه ، أن النبي ﷺ قال : ((الخيل معقود في نواصيها الخير الأجر والمغنم إلى يوم القيامة)) [٥] .

ثواب من تعلم القرآن أو علمه :

عن أبي أمامة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((اقرءوا القرآن فإنه يأتي يوم القيامة شفيعاً لأصحابه)) [٦] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ((ما اجتمع قوم

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور ، ج٣ ، ص ٣٨٢ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الحج باب فضل الحج والعمرة ، ج٩ ، ص ١١٩ .
وقال النووي : ((.. الرفث كلمة جامعة لكل ما يريده الرجل من المرأة وأما الفسوق فهو المعصية)) ج٩ ، ص ١١٩ .

(٢) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب العمرة باب وجوب العمرة وفضلها ، ج٣ ، ص ٥٩٧ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الحج ، باب فضل الحج والعمرة ، ج٩ ، ص ١١٧ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب الجهاد ، باب فضل رباط يوم في سبيل الله ، ج٦ ، ص ٨٥ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجهاد ، باب فضل الغدوة والروحة في سبيل الله، ج١٣ ، ص ١٦ .

(٤) المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح ، الدمياطي تحقيق ، بن دهيش ، ص ٣٢٩ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الجهاد ، باب الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، ج٦ ، ص ٥٤ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الجهاد ، باب فضيلة الخيل وأن الخير بنواصيها ، ج١٣ ، ص ١٧ .

(٦) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب صلاة المسافرين وقصرها ، باب فضل قراءة القرآن ، ج٦ ، ص ٩٠.

في بيت من بيوت الله تعالى يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)) [١] .

ثواب ذكر الله سبحانه:

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : ((كان رسول الله ﷺ يسير في طريق مكة فمر على جبل يقال له : جُمدان ، فقال : سيروا هذا جمدان سبق المفرِّدون قالوا: وما المفردون يا رسول الله ؟ قال : الذاكرون الله كثيراً والذاكرات)) [٢] .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : ((من قال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير في يوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة ، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به إلا أحد عمل أكثر من ذلك)) [٣] .

ثواب صلة الرحم والبر :

عن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : ((الرحم معلقة بالعرش تقول: من وصلني وصله الله ومن قطعني قطعه الله)) [٤] .

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ((أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا وأشار بالسبابة والوسطى وفرّجَ بينهما)) [٥] .

ثواب من قضى حوائج إخوانه المسلمين :

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ((من نفس عن مسلم

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ، ج١٧ ، ص ٢٢ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ج١٦ ، ص ١١٣ .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري كتاب بدء الخلق باب صفة إبليس وجنوده ، ج٦ ، ص ٣٣٨ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء ، باب فضل الدعاء باللهم آتنا في الدنيا حسنة ، ج١٧ ، ص ١٦ .

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب صلة الرحم وتحريم قطيعتها ، ج١٦ ، ص ١١٣ .

(٥) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الطلاق ، باب اللعان ، ج٩ ، ص ٤٣٩ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الزهد باب فضل الإحسان إلى الأرملة والمسكين واليتيم ، ج١٨ ، ص١١٣ .

كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه)) [١] .

ثواب من عاد مريضاً :

عن ثوبان رضي الله عنه ، عن النبي ﷺ قال : ((إن المسلم إذا عاد أخاه المسلم لم يزل في خرفة الجنة حتى يرجع قيل يا رسول الله وما خرفة الجنة قال : جناها)) [٢] .

ثواب حسن الخلق :

عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : ((إن من أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وألطفهم بأهله)) [٣] .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ للأشج [٤] : ((إن فيك خصلتين يحبهما الله تعالى الحلم والأناة)) [٥] .

ثواب صالح الأعمال :

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : ((انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى أواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا : إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم ، قال رجل منهم : اللهم كان لي أبوان شيخان كبيران وكنت لا أغبق قبلهما أهلاً ولا مالاً فنأى بي طلب شجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن أغبق قبلهما أهلاً أو مالاً فلبثت والقدح

---

(١) نفس المصدر كتاب البر والصلة ، باب بشارة من ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الآخرة ، ج١٦ ، ص ١٤٣ .

، سنن الترمذي ، كتاب البر والصلة ، باب ما جاء في الستر على المسلم ، ج٤ ، ص ٣٢٦ .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب فضل عيادة المريض ، ج١٦ ،ص ١٢٥ .

(٣) سنن الترمذي ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء في استكمال الإيمان وزيادته ونقصانه ، ج٥ ، ص ٩ . قال أبو عيسى : هذا حديث صحيح .

؛ مسند الإمام أحمد ، ج٦ ، ص ٤٧ ، ٩٩ .

(٤) الأشج هو المنذر بن عائذ من بني عبد القيس ، كان سيدهم وابن سادتهم مقدم وفدهم إلى النبي ﷺ . شرح النووي ج١ ، ص ١٨٩ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الإيمان ، باب مبايعة وفد عبد القيس للنبي ﷺ ، ج١ ، ص ١٨٩ .

على يدي انتظر استيقاظهما حتى برق الفجر فاستيقظا فشربا غبوقهما ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عناء ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شياً لا يستطيعون الخروج . قال النبي ﷺ : قال الآخر: اللهم كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إليَّ فأردتها على نفسها وامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت حتى إذا قدرت عليها ، قالت : لا أحل لك أن تفض الخاتم إلا بحقه فتحرجت من الوقوع عليها فانصرفت عنها ، وهي أحب الناس إليّ وتركت الذهب الذي أعطيتها . اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها ، قال النبي ﷺ : وقال الثالث : اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب ، فثمّرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال : يا عبد الله أدّ إلي أجري ، فقلت : كل ما ترى من أجرك من الإبل والبقر والغنم والرقيق ، فقال : يا عبد الله لا تستهزئ بي ، فقلت : إني لا استهزئ بك فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً ، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا ، يمشون))[1] .

إن هذا الثواب لا ندركه إلا بأخبار الآحاد الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتلك أخبار غيب أعلمه الله تعالى بوحيه إليه ﷺ ، فتلقتها أمته بالقبول طمعاً في الثواب في دار الآخرة ، وهذا مذهب أهل السنة والجماعة وإيمانهم بما جاء عن الله تعالى وعن رسول الله ﷺ فهما مصدرا التلقي عندهم بضابط مفهوم السلف رحمهم الله تعالى .

وقد ضلت تلك الفرق المخالفة لقولهم بعدم الاحتجاج بأخبار الآحاد في العقيدة فتخبطوا في إثبات هذا الثواب من الله وزاغت أبصارهم عن الحق فمنهم من قال بالإرجاء وهم الأشاعرة والماتريدية وأصحابهم ومنهم من قال بتكفير مرتكب الكبيرة كالخوارج والمنزلة بين المنزلتين في الدنيا وتكفيره إن مات على ذلك وهم المعتزلة وأصحاب الذوق والكشف وهم الصوفية وقد تبعتهم فرق أخرى وهو ضلال أدركه من عاد منهم في آخر العمر والتجربة .

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري ، كتاب الإجارة ، باب من استأجر أجيراً فترك أجره ،ج٤ ،ص ٤٤٩ .
؛ صحيح مسلم بشرح النووي ، كتاب الذكر والدعاء ، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال ، ج١٧ ، ص ٥٥ .